236 ساعة

مائتان وستة وثلاثون ساعة

رواية

علاء سعد حميده

عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

إهداء

إلى

البسطاء المهمّشين الذين أتعلّم منهم عمليّا الشهامة والمروءة

إلى

الحزب الذي أنتمي إليه وهو حزب الأغلبية المطلقة الصامتة في وطني العربي الكبير "حزب الكنبة الواعي المتغابي"

وإلى

بلادي التي أحبها حتى النخاع

1

القَنِّي هو هذا الشاب الذي تعرفه، ملامحه مألوفة لديك! ربما لا تتذكّر آخر مرة قابلته فيها، لكنّك التقيته يوما ما. ربّما كان آخر سائق تاكسي ركبت معه، أو موظّف الأمن الذي استقبلك أمام بناية فخمة، أو كاشير (الهايبر) الكبير الذي تتردّد عليه، أو صاحب حرفة احتجت إلى صنعته ذات يوم!

تميل قامته إلى القِصر، ويميل جسده إلى الاعتدال، قوّي البنية في غير إفراط، أسمر البشرة، وجهه يشعرك بالراحة والطمأنينة إذا أراد لك أن تطمئنّ إليه!! ويشعرك بالاستعداد للمناكفة والقدرة على ممارسة التنمّر، إذا أحبّ أن يوجّه إليك رسالة مشفّرة بتعابير الوجه ونظرة العين ولغة الجسد!

وجهه لا يخلو من وسامة معبّرة، قد تدفع به يوما إلى عالم نجوم السينما الجُدد، فقد يصبح بطلا من أبطال سينما العشوائيات بجدارة لا ينافسه فيها من يتربعون على قمّتها الآن.

القَنِّي ذو الأربعة والعشرين عاما، صاحب التجارب والخبرات التي تفوق عمره بحسبة نصف قرن إضافية من الزمان. لن تعرف أبدا من الذي لقّبه بالقَنِّي ولا لماذا؟ ما وجه الشبه بينه وبين قَني "أسامة أنور عكاشة" في مسلسل "النوّة" الذي لعب دوره الفنان "المنتصر بالله"؟

هل لهذا اللقب عِلاقة ما بالحكايات التي يرويها عن نفسه، والتجارب التي خاض غمارها؟

ظنّي أنّه نفسه لا يعرف على وجه الدقّة.

في ورشة سبك المعادن في الحي الشعبي العتيق في قلب المدينة الصناعية القديمة، وجد القَنِّي نفسه يمارس واحدة من أشقّ وأخطر الحرَف التي عرفها البشر، في قلب الحي الذي يقع فعليا تحت الأرض لا بلغة منسوب المساحة والجغرافيا، ولكن بمنسوب مجتمع المدينة المهمّش هو أيضا في الأساس!

في هذا المكان الذي يسمّي القَنِّي وأمثاله الخروج منه ولو مؤقّتا (بالخروج على وجه الدنيا)، تقوم صناعات ثقيلة تنافس صناعات أوربا وأمريكا، وتتفوَّق بمراحل على صناعة إمبراطورية الصين. صناعات تقوم بالجهود الذاتية وفي أفران بدائية وبآلات أقدم حتى من وصف البدائية، يصنع منها (الدماغ) المصري، والعضلات المصرية معجزة صناعية حقيقية. لكنّها مغمورة لا يشعر بها إلا من اختبر متانتها ورخص تكلفتها مقارنة بنظيراتها صينية الصنع التي تغزو أسواق قطع الغيار في كافّة المجالات تقريبا.

يقف القَنِّي على فرن بلدي لإذابة المعادن التي تحتاج إلى درجات حرارة تفوق خمسمائة درجة مئوية وقد تصل إلى ألف درجة، ليذيب المعدن العنيد ويعيد تشكيله طبق الأصل على هيئة الآلة المعدنية المستوردة من اليابان أو كوريا أو ألمانيا أو حتى أمريكا!

تخيّل! إنهم يصنعون (بساتم) كافة أنواع محركات البنزين والديزل! باستخدام تلك الأفران البلدية وكمية من الرمال معدَّة لهذا النوع من الاستخدام!

دَلَفَتْ إلى الزُقاق الضيّق سيارة مرسيدس فاخرة تكاد تدخل المضيق دون أن تصطدم بجدران الورش بالكاد. على الرغم من وجود سيارة نصف نقل تركن في منتصف الزُقاق المغلق تقريبًا أو هكذا يبدو! فتح السائق زجاج النافذة الكهربائية اليمنى للسيارة، فصاح صوت قوي لرجل أنيق:

- السلام عليكم يا حاج أبو محمد.
- وعليكم السلام والرحمة يا باشا.
- نريدك في مصلحة هكذا يا حاج على السريع. تفضّل اركب معنا.
- ألا تنفع هذه المصلحة في الورشة ولا مؤاخذة يا باشوات؟ تفضّلوا عندي نشرب الشاي ونتحدث.
- الأنسب أن نذهب إلى مكان هادئ يا حاج. لن نعطّلك عن الورشة طويلا. مدة شرب الشاي فقط.
- قلنا الشاي موجود عندنا في الورشة يا باشوات. على فكرة مياهنا نظيفة، وأكوابنا تبرق من النظافة. لا تخافوا عدم المؤاخذة.

- لسنا خائفين يا معلم. فقط اركب معنا وستجد ما يسرّك.
نهض الحاج أبو محمد وهو يهتف:
- توكّلنا على الله. قَنِّي. يا قَنِّي. ولد يا قَنِّي. اترك ما بيدك واجلس هنا مكاني حتى أرى ماذا يريد الباشوات وأعود حالا.
يفتح الأنيق الباب الخلفي، يهتف الحاج وهو يضع قدمه، ويرفع جلبابه البلدي:
- بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله. ربنا يزيدكم من نعيمه يا باشوات. إلى أين العزم إن شاء الله؟
تمتم الأنيق:
- قريب من هنا مقهى هادئ نستطيع أن نأخذ راحتنا في الحديث.
- الحديث بخصوص أي شيء عدم المؤاخذة. يكون الولد قَنِّي فعل شيئًا هكذا أو هكذا؟
- نريدك في عمل يا حاج. عمل على درجة من الأهمية والحساسية. سنشرب الشاي ونتحدَّث في الموضوع.
- خير اللهم اجعله خيرًا.
على المقهى القريب قام السيد عماد بدور السكرتير، فقام بواجب تعريف الحاج بمراد بك باعتباره رجل أعمال ومن أثرياء الصعيد. وفتح الحديث قائلا:
- في الحقيقة يا حاج عرفنا أنّك من أفضل من يقوم بسبك المعادن. وربما أفضلهم جميعًا في بر مصر كله.
- هذا من ذوقك العالي يا سيد عماد.
- هذه ليست مجاملة يا حاج. مراد بك لا يعرف المجاملات في العمل. إنه يعتمد على دراسات ميدانية يقوم بها فريق متخصّص من الباحثين على مستوى الإقليم وليس الجمهورية وحسب.
يرفع عماد بصره ليرى وقع كلماته على محيّا الحاج، الذي لم يبدِ اندهاشه مما يسمع كرجل عركته التجارب، فرغم تلهّفه على معرفة المزيد، استطاع أن يُبقي ملامحه محايدة وفي وضع مثالي أقلق محاوريه. هتف مراد بك:

- فلندخل في الموضوع مباشرة يا حاج بلا مقدّمات. عندنا عدد من التماثيل الأثرية وسبائك الذهب نريد أن ننسخ منها عشرات النسخ بنفس الجودة والإتقان. ولن نجد أفضل منك لتنفيذ هذا العمل.
- خائف أشكرك يا باشا تقول لي إنّك لا تجامل. يعني سعادتك تريد مني أن أصنع لك تماثيل طبق الأصل من النحاس والبرونز، أليس كذلك؟

قال مراد بك بامتعاض:

- تماثيل من النحاس أو البرونز!! وهذه ماذا نفعل بها يا حاج؟
- أظنكم تبيعونها للسياح في خان الخليلي أو في الأقصر وشرم الشيخ.

قهقه عماد، وابتسم مراد بك ابتسامة مقتضبة، وقال وهو يضيّق ما بين عينيه:

- نريدها تماثيل من الذهب الخالص يا حاج.

مرَّت لحظة صمت، والحاج ينقل البصر بين محدِّثيه في هدوء، كأنه يزن الموقف. ولما طال صمته سأله مراد بك:

- ماذا قلت يا حاج؟
- فيمَ؟
- في نسخ التماثيل الذهبية.
- دعنا نلعب على المكشوف يا مراد باشا. أنت تريد أن أزيّف لك الآثار لتهرّبها إلى أوربا وأمريكا، أليس كذلك؟
- لا يوجد أي تزييف يا حاج. التماثيل ستكون نسخة طبق الأصل ومصنوعة من الذهب...

نهض الحاج وهو يقول بازدراء:

- طلبكم ليس عندي يا باشوات. لا بد أنكم أخطأتم في العنوان.

سارع عماد بالقول منفعلا:

- اضبط أعصابك يا حاج. مراد باشا لا يخطئ في العناوين.
- إذن لقد أخطأتم في الشخص المطلوب. هيئة البحوث أخطأت هذه المرَّة.. السهو والنسيان مكتوب على بني البشر. بالإذن يا باشوات.

ألقى الحاج ورقة بعشرة جنيهات على طاولة المقهى وبدأ يتحرك مغادرًا. جرى خلفه عماد وهو يردِّد:

- انتظر دقيقة يا حاج. الأمور لا تُؤخذ هكذا. هذه ليست طريقة تفاهم.
- ليس بيننا تفاهم يا باشا. طلبكم ليس عندي.
- اسمع يا حاج. هل تعرف أحدًا غيرك يقوم بهذا العمل؟
- لا أعرف.
- أنت في هذه المهنة منذ أربعين سنة، كيف لا تعرف؟
- لأنّي لا أعرف. انظر يا سيد عماد دعني أقول لك ما لم أكن أُحبّ أن أقوله. هذا الطريق الذي تريده مني طريق شمال. وأنا حججت إلى بيت الله وزرت مسجد رسوله صلى الله عليه وسلم. قل صلى الله عليه وسلم يا سيد عماد.
- عليه الصلاة والسلام.
- ومن كان مثلي يا ابني لا يعرف طريق الشمال ولا أهل الشمال. ربنا يجعلنا من أهل اليمين. قل آمين.

ردّد عماد مكرها ومذهولا:

- آمين يا حاج.

يخطو الحاج خطوات مسرعة لا تتناسب مع سنّه وهيئته، كأنّه يفرّ من وسوسة نفسه، تاركًا عماد ومراد في ذهولهما لم يفيقا من الصفعة غير المتوقعة التي وجّهها لهما. علا صوت مكبِّر مسجد صغير على يمين الطريق الذي سلكه الحاج مؤذنًا لصلاة العصر. هُرع الحاج إلى المسجد على الرغْم أنّه كان قريبًا من مسجد حيه الذي اعتاد الصلاة فيه، كأنّه يختبئ في المسجد من عدو مجهول. كان في حاجة إلى إسباغ الوضوء لتهدأ أعصابه. وعندما عاد أخيرًا إلى ورشته استقبله القَنِّي في لهفة:

- من هؤلاء يا حاج؟ وماذا يريدون؟

تجاهل الرجل تساؤل ابنه، وبدأ بالتشاغل عنه بالسؤال عن أشياء خاصّة بالورشة، وأخذ ينادي على صبيانه ويرسلهم في مهمات تافهة هنا وهناك. والقَنِّي على أحر من الجمر. فكرَّر السؤال أكثر من مرة حتى أضجر والده، فأجابه في برود:

- انظر يا ولدي. هؤلاء الباشوات شمال. وطريقهم بطَّال. أريدك يا بني ألا تغرَّك المظاهر. هؤلاء مثلا يأتون في صورة باشوات الزمن الماضي. يركبون أفخم السيارات، ويرتدون أغلى الثياب، ويضعون أثمن العطور. لكنهم من الداخل متعفنين يا بني. قلوبهم نتنة، فلا تغتر بهم ولا بأمثالهم في يوم من الأيام.

*****

2

أشرف طويل القامة عريض المنكبين، وسيم الملامح، أبيض البشرة مشرّب بحمرة محبّبة، فاتح لون الشعر كثّه. لديه لدغة خفيفة مميّزة في نطق حرف الراء تضيف إلى جاذبيته الحاضرة بقوة. منذ طفولته المبكّرة يحب حنان ابنة خاله. الكبار في العائلة قالوا:

- حنان لأشرف وأشرف لحنان.

كلمتهم بمنزلة قراءة فاتحة. يكبرها بثلاث سنوات. عندما تُوفّي أبوه واضطرّ أن يكتفي من الدراسة بالحصول على شهادة العام السادس الابتدائي، والمكوث في ورشة ميكانيكا السيارات مع عمه ليحصل على يومية صبي تساعد في تدبير أمه لشؤون المعيشة، كانت حنان تنتقل إلى الصف الرابع الابتدائي. كانا حتى العام الفائت يذهبان إلى المدرسة الابتدائية المشتركة، وكفُّه في كفِّها. يظنّ التلاميذ في المدرسة أنّهما شقيقان. ربما تظنّ حنان ذلك أيضًا فابن عمتها يساوي شقيقها. الطفل أشرف لديه إحساس متضخم بالحب ويفتخر أنّها خطيبته. لا أحد في مثل سنه ولا حتى لو كان في ضعف عمره له خطيبة. هو له خطيبة وحبيبة اسمها حنان!

بعد تركه المدرسة والتحاقه بورشة الميكانيكا، ينتظرها صباح كل يوم أسفل منزلها قبل أن يرتدي (عفريتة) العمل بالورشة. ليظل نظيفًا أنيقًا وهو يوصلها إلى باب مدرستها. وبعد الظهر يضطرّ إلى تغيير زي العمل بعد أن يقضي وقتًا طويلا في إزالة آثار الشحم والزيوت المحترقة من على كفيه وذراعيه ووجهه محافظًا على مظهره وهو يصحبها في

طريق عودتها من المدرسة إلى البيت. يسكنان في بيتين منفصلين يقعان في حي واحد. اعتادت حنان إذا احتاجت شيئًا ما أن تطلب من أشرف قبل أن تطلب من شقيقها حامد!
يكبران وتكبر أحلامهما معًا. يُدرك أشرف أنّ حنان التحقت بمدرسة إعدادية. تكرّر أمه على مسامعه أنّ حنان ستكمل تعليمها حتى الجامعي، يتساءل في حيرة:
- وماذا عليّ أن أفعل؟
تجيبه الأم بحنان:
- اجتهد كي تكون مثقّفًا كما أنت نظيف أنيق ووسيم. حتى تظل جديرًا بها.
يطأطئ رأسه إلى الأرض. تلمح أمه في عينيه نظرة انكسار حزين. تقول له في حب ورقّة:
- أعرف يا أشرف يا ولدي أنّك كنت متفوّقًا في دراستك، ولولا وفاة والدك لصرت مهندسًا قدر الدنيا. لا عليك يا حبيبي. أنت في نظري أكبر مهندس في الدنيا.
يدرك أشرف أن أمه تواسيه بغير الحقيقة، يتساءل في حيرة:
- وفي نظر حنان وأسرتها يا أمي؟
- تظل باش مهندس قدر الدنيا ما دمت تتقدّم في مهنتك وتكسب لقمتك بعرق جبينك.

*****

3

مهندس شعبان شاب في مطلع الثلاثينيات، معتدل في كل شيء قامته وقوامه. أبيض البشرة، لون شعره يميل إلى اللون البني الغامق، الشعيرات التي تكاد تهرب من ماكينة حلاقته حول الذقن تميل للون الذهبي. قسماته تعطيك شعورًا أخّاذًا بالثقة والطمأنينة. لا يمكن وصفه

حتى دون أن تعاشره سوى بأنّه (برنس) في ذاته أو الخلوق ابن الناس الطيبين!
يشعر شعبان في مرحلة شبابه الأول بتميزه الخُلقي على أقرانه. في بداية مرحلة الدراسة الثانوية حيث يحاول كثير من اليافعين إثبات الذات بشيء من الفجاجة والغلظة، أو باتباع أغرب الصيحات والتقليعات في المظهر والسلوك! إذ ذاك كان رفقاء شعبان يرونه كما هو الآن الشاب الثلاثيني الناضج. لقَّبوه بالمستر!
وبدعوة من أحد أصدقائه المقرَّبين وجد نفسه يحضر لقاء المسجد أول مرة عقب صلاة الجمعة. عادة القصص تبدأ هكذا. دعوة من صديق. أول سيجارة، أول نفَس، أول لقاء!
فتيان المسجد يطلقون عليها المقرءة. لم يسترح شعبان تمامًا لدعوة صديقه في بادئ الأمر تململ وتملَّص، لكنّ كثرة الإلحاح من صديقه وواجب الصداقة دفعه للتجربة. قال لصديقه وهما ذاهبان إلى المسجد قُبيل صلاة الجمعة:
- رغم مواظبتي على الصلاة، لكنّني أنتظر فراغ الإمام من خُطبة الجمعة على أحرّ من الجمر. لا أعرف على وجه التحديد نوعية الرسالة التي يريد توجيهها لنا كمستمعين وهو يتلوَّن بصوته بين ارتفاع وانخفاض، ومط وإطالة وإمالة. وكثيرًا ما أشعر بالنُعاس وأدعو الله أن ينهي خُطبته ويقيم الصلاة قبل أن أستغرق في النوم وأفقد وضوئي. فهل يتوَّجب عليّ حضور درس آخر عقب الصلاة أيضًا؟
- ستشعر بالفرق، ثق في ذلك!

4

إسلام شابّ في منتصف الثلاثينيات جسيم البدن، طويل القامة، أبيض البشرة، مريح قسمات الوجه، حليق الشارب واللحية. يعاني إسلام منذ طفولته الباكرة من وفاة أُمه الحنون. يعرف أنّها كانت ملاكًا يمشي على الأرض. تفيض رقّة وعذوبة على كل من حولها، تقوم بكل الشؤون والمهمات سواء المتعلقة بالبيت أو تدبير حياة الأسرة، أو استذكار دروس الصغار. زوجها أُسطى حماده الشحات، رجل أمي لكنّه بطل على كل المستويات، حارب في حروب الاستنزاف، كما قاتل في معركة أكتوبر وانتصر على إسرائيل، تعلّم الأُسطى حماده من الحرب ألا يعجزه شيء! يعمل أسطى نجار موبيليا بدرجة فنان مبدع، يتقن عمله ويتفوَّق فيه، ولا يصنع إلا ما يقارب التحف الفنية من قطع الموبيليا، ولذلك يؤمّه كل من يروم فن الموبيليا الحقيقي والمتين الراسخ في نفس الوقت، الأسطى حماده يرفع شعارًا فذًّا في تعامله مع زبائنه، يقول:

- من كان مستعدًّا لأن يموت من أجل أولاد بلده؛ لا يمكن أن يخونهم في حرفة من الحرف!

ذكاؤه الفطري يجعله مستعدًّا لتعلّم كل شيء. درجة أنّه يتابع باهتمام دروس زوجته لأطفاله، ما مكَّنه من محو أميته بالتدريج!

عبقرية الأب الأُسطى حماده الشحات الاجتماعية وحنانه الفائض يعوِّض إسلام وأشقاءه شيئًا من فقدان الأم. زوجة عمه أيضًا حاضرة بحرارتها لتعوّض جزءًا مفتقدًا آخر، يقول إسلام:

- أعرف أنّ الرعاية التي منحنا إيّاها أب عظيم ندر أن يجود الدهر بمثله. وحنان زوجة عمي لا يحصل على بعضه كثير من الأطفال. لكنّ فقدان الأم في سن الطفولة يكسر لك شيئًا داخلك. شيء فيك يخرب ولا يعود قابلا للإصلاح بعد ذلك أبدًا. إحساسٌ ما يموت مثلما ماتت الأم، يموت معها وبموتها. فلا الأم تُبعث ولا هذا الإحساس يُبعث. يوم البعث لم يحن بعد. قد يكون ما انكسر هي نفسك ذاتها!

إيهاب من أول أمس إن شاء الله. هكذا يعرّف نفسه دومًا، وكأنّ تلك الجملة هي اسم والده وعائلته. الفتى الذي تجاوز السابعة والعشرين من عمره، ويملك هذا الجسم المربوع والبشرة القمحية، والكثير الكثير من الكاريزما، التي تنبعث ربما من كونه أكحل العينين تنطلق منهما تلك النظرات الثابتة المركّزة عليك، تخترق أعماقك دون أن يرّف له جفن من خجل أو حياء، أو من تلك الانفراجة الأبدية لشفتيه الغليظتين عن ظل ابتسامة معلّقة ساخرة تهزأ من كل شيء تقريبًا، ربما من تلك الوقاحة المهذَّبة التي ينطق بها لسانه مجيبًا عن سؤال إجابته لا بد أن تكون من كلمة واحدة فقط. تخطفك الكلمات وعندما تحلّلها لا تجد فيها كلمة واحدة مشينة رغم وقاحة الاقتحام الجريء. أو من أناقته البارزة وتناسق ملابسه على نحو ملفت رغم بساطة طبيعتها!

هكذا نشأ إيهاب ذو شخصية آسرة تأخذ بالألباب. الحديث معه ثري وممتع إلى حدّ بعيد، فلو صادف ودار بينكما حوار في مناسبة ما، سيبهرك بالحديث عن الخطط الاستراتيجية السياسية والاقتصادية للحكومة المصرية ما بعد ثورة الثلاثين من يونيو، سيفاجئك بحديث أكثر وعيا ورصانة وأجدر على إقناعك من كل المحللين السياسيين والاقتصاديين الذين تستضيفهم برامج (التوك شو) على الفضائيات المتلفزة ليل نهار. سيشرح لك سياسات الحكومة، والخطط المستقبلية، وتقلّص الدين العام، ونسبة الارتفاع في الناتج المحلي وبالتالي زيادة فرص الاستثمار، وجذب استثمارات اقتصادية أجنبية جديدة، وتوفير آلاف من فرص العمل للشباب العاطل عن العمل. والطفرة الاقتصادية العملاقة التي تحققت بعد تعويم الجنيه المصري مقابل العملات الأجنبية، وحجم الإصلاحات السياسية الداخلية، مع إعادة الهيكلة الإدارية للقطاعات الحكومية بالكامل، وخطط التطوير العمراني الجديدة، وما سينتج عن إتمام مشروعات الطرق والمحاور في مصر. ويحدّثك عن الدور الإقليمي الذي لعبته السياسة المصرية الخارجية، بحيث استطاعت تقريبًا إخراج أغلبية الفاعلين الإقليميين في المنطقة، لمصلحة المشروع المصري الذي يعمل على إعادة التمحور على مستوى السياسة الإقليمية

لاحتلال مساحات من النفوذ لم تعرفها مصر في سياستها الخارجية من قبل. سيضرب لك مثالا بمنتدى شباب العالم الفائت بشرم الشيخ، والذي حضره إيهاب بصفته أحد خلاصات الخلاصة لشباب هذا الوطن، وما أُثير فيه من أطروحات جديرة بالدراسة والتعمق.
يمكنك أن تسأل إيهاب عن وظيفته وأنت تتوقع أن تبهرك الإجابة كما أبهرتك ثقافته السياسية والاقتصادية، وعرضه المذهل لاستراتيجيات الدولة حتى عام ألفين وثلاثين. لكن إيهاب لن يروي فضولك أبدًا لمعرفة الإجابة. سيتجاهل التعليق مهما كنت فجًا وحاصرته بالأسئلة الملتوية التي تؤدي كلها إلى محاولة الحصول على جواب واحد. سيتركك في النهاية تظنّ أنّ سبب عدم إجابته أنّه يشغل وظيفة سرية ما في جهاز حكومي حسَّاس ذو طبيعة خاصّة مرتبط بالتخطيط وإدارة المستقبل!

*****

6

لا يوجد أيّ شيء غير معتاد يجري في الميدان الكبير الذي يتوَّسط المدينة الإقليمية الصغيرة، يتعرَّض الميدان لنسمات رطبة من هواء الخريف المنعش اللطيف، وقد قلّت الحركة داخل المدينة كلها قبل الساعة العاشرة مساءً بساعتين على الأقل، فاليوم يوم جمعة، حيث عطلة معظم المحال التجارية، كما أنّ الثامنة مساءً موعد مباراة القمّة بين القطبين الكبيرين الأهلي والزمالك.
عقب المباراة وفي حدود الساعة العاشرة بدأت حركة الناس تجاه الميدان الكبير، الحركة أقل من المعتاد لكنّها أكثر من الساعات السابقة. ثمّة بعض عائلات تتجمَّع لقضاء السهرة في الهواء الطلق، هؤلاء اعتادوا أن يفترشوا رخام درج الفسقيّة التي تتوسَّط الميدان. وحيث إنّ كل شيء بدا عاديًا تمامًا إلا أن التوجّس كان حاضرًا بقوّة يلقي ظلالا كثيفة في أطراف الميدان، لم يكن التوجّس وحده هو الذي يملأ كثيرًا من النفوس، بل صاحَبَهُ شيء من الترقّب، وقدر مبالغ فيه من التوتّر. كل من يعرف

المدينة الصغيرة جيدًا، وراقب وجوه الناس التي تتجوَّل في الميدان الكبير ساعتئذ، يدرك عن يقين غياب وجوه الثوّار والسياسيين المعدودين في تلك المدينة، فهؤلاء الرموز يُعدّون على أصابع اليدين على أكثر تقدير، أما ما بقي من أفراد الخلايا النائمة لجماعة الإخوان المحظورة قانونًا، فلم يعد لهم وجود في عالم المدينة الواقعي، إذ لا يظهرون إلا في العالم الافتراضي من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، حتى أنّ أغلبهم إمعانًا في التخفّي حدّ التلاشي يستخدمون أسماءً مستعارة، وكأنّ أجهزة الأمن لا يمكنها تتبُّع أرقام هواتفهم التي يدخلون منها إلى عالم الإنترنت!

لم يكن هناك أي مبرر والوضع كذلك لهذا التوجّس الجاثم فوق الميدان، يُثقل حركة الهواء فيه.

لعل ضابطًا شابًا حديث العمل في إحدى الجهات الأمنية بالمدينة، غلبه الحماس والانفعال، وربما أراد أن يثبت لرؤسائه في الجهاز الأمني نشاطًا وكفاءة، ويؤكِّد لمرؤوسيه استحقاقًا وجدارة، اصطحب بعض جنوده، وأخذ يحتكّ دون مناسبة ولا مقدّمات بتلك العائلات التي افترشت الدرَج الرخامي لفسقيّة الميدان، آمرًا الجميع بالإخلاء الفوري للمكان، ولأنّ الأمن كان مستتبًّا، ولأنّه لم تصدر أيّة إشارة من قريب أو بعيد أنّ ثمَّة أحداث على وشك الوقوع، فإنّ العائلات المفترشة المكان، حيث معظم المتواجدين لحظتها من النساء مع أطفالهنّ، رفضت الانصياع لأوامر الضابط الشاب وجنوده، ولعلهم جادلوه فأطالوا الجدال، وتطوَّر الموقف بين شدّ وجذب، وانفعال وتوتّر وارتفاع صيحات من هنا وهناك، صاحَبَ ذلك استدعاءً هاتفيًا لبعض الفرق الأمنية باعتبار أنّ امتناع الأهالي عن إخلاء الميدان، ينمّ عن أحداث شغب محتمل!

خلال دقائق معدودة سيطر التوتّر على الموقف، واندلعت أحداث أقرب للشجار المجتمعي منها لأي مظهر من مظاهر تظاهرة سياسية ما! لم تكن ثمّة مظاهر للتظاهر السياسي، غابت الوجوه الثورية والسياسية، ومعها غابت مكبّرات الصوت التي يحملها الذين يهتفون في أي مظاهرة، وغابت اللافتات التي تحمل شعارات التظاهر، وخلت حتى من الأعلام الوطنية، ولم يظهر أي نوع من أنواع المطبوعات، لم يكن هناك أثر لمظاهرة سياسية ولا وجود لدليل عليها، ولم تكن ولو

إرهاصات على احتمال قيام مظاهرة سياسية في تلك المدينة الوديعة المسالمة!

يجلس حامد الترزي على مقهى مطل على الميدان الكبير، يتابع مع مجموعة من أصدقائه مباراة الأهلي والزمالك. واستمرّ بهم المجلس عقب المباراة فالهواء عليل، وصبي القهوة ماهر في رصّ حجر المعسل، فجاءت الشيشة على الأصول، حامد شاب في بداية الثلاثينيات ضخم الجسد بشكل لافت، طويل وجسيم، يملك ذراعين قويتين كرافع أثقال، أبيض البشرة، يملك شاربا خفيفا، وشعر قصير مجعّد، وقد جاء مقعده مواجها لمنتصف الميدان مباشرة، كان يتابع من خلال دخان الشيشة المتصاعد أمامه ما بدا أنّه شجار دائر حول الفسقيّة، لكنّه لم يفهم سبب ما يجري ولم يأبه لما يدور. حتى بدأ يشعر بأن الشجار يتطوّر. على الرصيف المقابل للمقهى مباشرة، يلمح كهلا خمسينيا أشيب شعر الرأس واللحية، ويلبس نظارة طبّية، يتقدّم على هذا الرصيف رافعًا على أذنه هاتفه المحمول منهمكًا في مكالمته الهاتفية، حتى وصل إلى نقطة أمامه تماما على ذلك الرصيف، ثمّ توقف. بدا أنّه يستطلع ما يحدث حول الفسقيّة، مرّة أخرى رفع هاتفه المحمول إلى مستوى أذنه، لا بد أنّه استقبل مكالمة هاتفية جديدة، وفي لمح البصر رأى حمدي الترزي، مجموعة من ستة أفراد في ثياب مدنية يتوسّطها شاب، يبدو أنّه ضابط، هجمت المجموعة على الكهل الخمسيني وقد شكّلوا حوله دائرة شبه مغلقة، تقدّم الضابط الشاب بسرعة البرق، وضربت يده بعنف الهاتف المحمول، فطار من على أُذن الكهل في الهواء، ثمّ سقط على بُعد عدّة أمتار، ويصيح في وجه الرجل الذي شلّت المفاجأة حركته، وأخرست لسانه.

شعر حامد الترزي بفوران الدم في رأسه، صرخ في أصدقائه الجالسين حوله بأن هلّموا. وتقدّم بشهامة وفتوّة واشتبك مع الدائرة الملتفّة حول الكهل الخمسيني، كان ظهور حامد مفاجئًا لأفراد الأمن، كما كان عزمه قويًا، وهجومه عنيفًا لدرجة أنّه استطاع فعلًا تخليص الرجل الكهل من بين أيديهم، واشتبك نيابة عنه في عراك ضاري مع المجموعة بكاملها، أخذ يكيل لهم اللكمات مطوّحًا بذراعية ورافسًا بساقيه، وهم يحاولون

السيطرة عليه. حاول الكهل الخمسيني أن يستغلّ النجدة الآتية له من السماء، بعد أن تخلّص من الذهول الذي أصابه للحظات، كان الرصيف الذي يقف فوقه ذا مستويين، عليه أن يصعد درجة ثم يُطلق ساقيه للريح إن أراد أن يفرّ من الميدان، في اللحظة التي رفع فيها رجله إلى المستوى الأعلى، كان أربعة من المخبرين قد وصلوا لنجدة زملائهم، فالتقطوه من ذراعية ومن رجليه في حركة مباغتة، والكهل يحاول الانفلات منهم، بالفعل أفلت ذراعيه وقلب جسده حتى لامستا الأرض، بينما ظلت ساقاه معلقتين في أيدي المخبرين القوية، وعقابًا له على محاولته التفلُّت، قرّر المخبرون سحله على أرضية الشارع بعرض الميدان الكبير، حيث كانت إحدى سيارات الشرطة تقف في الجانب الآخر من الميدان، كانت عملية السحل تتمّ من الساقين، بينما وجه الكهل وصدره ونصف جسده الأعلى كله يُسحل على أسفلت الشارع. لم يعد الكهل يشعر بما يحدث حوله إلا كما يشعر الحالم أثناء نومه، وصوت العراك الذي ما زال يدور بين شاب عملاق شهم لا يعرفه وبين أفراد الأمن يصل إلى أذنيه كأنّه يحدث في مكان بعيد عنه، ثمّ سمع صوت زجاجات تتكسَّر حوله، وأصوات صِبْيَة تهتف ضدّ الشرطة وقد هالهم مشهد سحل الكهل، والزجاج المهشَّم يتطاير حوله، شعر أنّه قد يصاب على أيدي الصِبْيَة المتعاطفين معه. وآلات تنبيه السيارات التي لم تتوقَّف عن عبور الميدان رغمًا عن عملية السحل تنذره بأنّ الموت قد يأتيه دهسًا!

*****

7

همَّ القَنِّي أن يجادله ليصل إلى أصل الموضوع. أسكته بإشارة من كفّه يعرفها القَنِّي جيّدًا، ويعرف أنّها إشارة نهائية بإغلاق الموضوع. نهض القَنِّي وأخذ يمارس عملا لا معنى له داخل الورشة، وذهنه كله مع السيارة المرسيدس الفاخرة وراكبيها الأنيقين. أبوه حكيم وصالح، وعمه شيخ. لكنّ المصلحة لا تدور معهما. لا يعرف هل الدنيا هي التي تهرب منهما، أم هما اللذان يفرّان من الدنيا. القَنِّي لا يريد أن يفرّ من الدنيا، يريد أن يمسك بها قبل أن تحاول الهرب منه. تلجلج وهو يتمتم

بكلمات لا معنى لها، يفهم منها الحاج أنّه يستأذن لقضاء حاجة، وهذه الحاجة عند الأب لم تكن تعني سوى شراء علبة سجائر، أو تدخين سيجارة، وهو يعرف أنّ القَنِّي يدخِّن، وربما يتورَّط قليلا فيما هو أبعد من التدخين، لكنّه يقدِّر احترامه لمقامه، وأنّه حتى هذه اللحظة لا يجاهر بالتدخين أمامه، والأب لا يريد أن يكشف ستر ابنه فيجرّئه عليه، يكتفي بابتسامة مقتضبة، ويشيّعه بهمهمة تحمل في طياتها دعاء بالحفظ والهداية.

يتّخذ القَنِّي مسارًا يبحث فيه عن أي أثر للسيارة المرسيدس الفاخرة، التي أخذت تتلكّأ هنا وهناك تبحث عن سبَّاك معادن في مهارة الحاج. ولم يكن بين السباكين جميعًا من يمكن أن يضاهي الحاج إلا ابنه القَنِّي. ومراد وعماد ينتظران أن يظهر القَنِّي ليقبل العرض الذي رفضه أبوه.

قدَّم القَنِّي نفسه لعماد ومراد:

- علمت يا باشوات أنكم سألتم الحاج عني.

- الوالد رجل صعب كثيرًا يا قَنِّي.

دخل القَنِّي في صلب الموضوع مقدّما خدماته:

- أنا (دايس) معكما في أي (سكَّة).

أجابه عماد ساخرًا:

- حتى ولو كانت شمال؟!

- حتى ولو كانت شمال يا باشا. أنا أساسًا شمال يا باشا.

قال مراد بك وهو يتأمّل بتدقيق النظر من خلال دخان سيجارته المتطاير:

- أنت يا قَنِّي مختلف عن الحاج اختلافًا جذريًا.

- يا باشا كل جيل وله دماغ وطريقة تفكير. ولا مؤاخذة.

أطلق عماد ضحكة عابثة وهو يعلِّق:

- ليس في القَنِّي شيء من والده إلا عبارة ولا مؤاخذة.

شاركه القَنِّي الضحك وهتف:

- ولا مؤاخذة هي عبارة التعريف الخاصة بعائلتنا. ولا مؤاخذة!!

تمّ الاتّفاق. سيصوّر القَنِّي التماثيل والسبائك باستخدام آلته الرملية العجيبة، وسيقدِّم له الباشوات حشوة من الخشب بوزن مناسب يتم

طلاؤها بطبقة من الذهب. يطمئنّ القَنِّي إلى أنّ ما يقوم به ليس شمالا. أو ليس شمالا كاملا. فالباشوات وطنيون ولا يتاجرون في آثار مصر. كل عملهم ينحصر في النصب على السذج بحيل لا تخطر على عقل الشيطان شخصيا. لديهم طرقهم الجهنمية التي يصطادون بها الضحايا ويوجّهونهم ويروّجون لديهم بضاعتهم المغشوشة مقابل الملايين من الجنيهات!

*****

8

يؤمن أشرف بقدراته ومواهبه وتشجّعه أمه، ورغم عمله المضني في الورشة فلا ينام ليلا قبل أن يقرأ نصف ساعة. يحب القراءة في الروايات الرومانسية العربية والمترجمة إلى الحد الذي جعله عندما التحقت حنان بالمرحلة الثانوية يختار لها الروايات التي تقرأها ويناقشها فيها. حريص على أن يشكِّل الشخصية الرومانسية الحالمة لحنان، حتى تشبّ وهي مؤمنة بزوال الحواجز بين البشر، وتدرك قيمة أشرف الحقيقية. ويؤمن أنّه مهندس في صنعته لا ينقصه منها شيء.
يكسب جيّدًا وسيفتح بيتًا لا تعوزه أشياء مهمّة، كما ينفق على والدته.
عندما ينتهي العمل بالورشة ويغتسل جيّدًا جدًّا من أثر عمله كمكانيكي. يفضّل الجلوس على مقهى محترم الواجهة يرتاده ثلّة من المثقفين وشباب الموظفين وطلاب الجامعة. هذا دائمًا هو الوسط الاجتماعي الجدير بالانتساب إليه. كوّن العديد من الصداقات من أبناء هذا الوسط حيث لا يظنّ أي من أصدقائه هؤلاء أنّه لم يُتمّ دراسته. لم يكن ينكر أمامهم عمله في مهنة ميكانيكا السيارات. لكنّهم كانوا يعتقدون جازمين أنّه نال قسطًا من التعليم لا يقلّ بحال من الأحوال عن دبلوم متوسط، إن لم يكن يزيد قبل التحاقه بهذه المهنة! وأشرف لم يعد يشعر أنّ نقصًا اعتراه بتخلّفه عن الحصول على شهادات دراسية بعد الابتدائية. فالتعليم من وجهة نظره غير مرتبط بالشهادة الدراسية. والدليل هو نفسه، إنّه يبدو مثقّفًا

أكثر من كثير من الحاصلين على شهادات جامعية ممن يلتقي بهم. المهمّ لديه أن يتعلَّم، ويظل يتعلَّم دون كِبر أو غرور أو حرج.

*****

9

لاحظ شعبان الفرق فعلا بعد أوّل جلسة في مقرءة المسجد. يقوم على المقرءة شباب لا يكبرونه بأكثر من بضع سنين، لكنّهم جميعًا يدرسون في الجامعات مما يجعل لديهم رصيدًا من التجارب والخبرات يبهر فتيان المرحلة الثانوية. مسؤولو المقرءة تبدو على وجوههم السماحة، وتنطق ملامحهم بالحماسة. لاحظ شعبان أنّه بين الحماسة والسماحة -وهما كلمتان لهما نفس الحروف مع تغيير في الترتيب- يكمن سرّ الاختلاف الذي شعر به للوهلة الأولى!

لم تكن المقرءة درسًا يلقيه أستاذ على تلامذته، ولكنّها كانت حوارًا تفاعليًا قائمًا على التعلّم بالتغذية الراجعة. يقرأ الجميع بضع آيات من القرآن، ويعقِّب الجميع بما يعنّ له من خواطر من وحي القراءة ومن عفو اللحظة، ثمّ يعقّب المسؤول الذي يدير المقرءة تعقيبًا جامعًا يركِّز على خلاصة من المفاهيم، دون أن يشعر أحد أنّه يعترض على خاطرة أُلقيت، أو يصوِّب فكرة عُرضت، أو يوجه نحو تكليف بالذات!

وقبل نهاية اللقاء، يقوم مسؤول المقرءة بتوزيع مواد لقاء الجمعة المقبل على الحضور. فهذا عليه أن يقرأ تفسير خمس آيات ليعرضها بأسلوبه في اللقاء التالي، وآخر يجهّز قاعدة من قواعد تجويد القرآن الكريم أو حُكمًا من أحكام تلاوته. وثالث يحضِّر حُكمًا فقهيًا متعلّقًا بالطهارة أو الصلاة. ورابع يقرأ حديثًا من أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلم من كتاب (الأربعون النووية)، وخامس يلقي موقفًا من مواقف سيرته العطرة. وبين الفقرات يتمّ التعارف بين المجتمعين بالاسم وتخصّص الدراسة وعنوان السكن. كانت المقرأة على هذا النسق تطبيقًا كاملا لطرق (البرزنتيشن) الحديثة التي يتطلّبها منهج البحث!

ينبهر شعبان بالمحتوى المعرفي والنموذج الأخلاقي الذي تقدِّمه المقرأة ورفقاؤه فيها. ولأنّه كان متفوّقًا بطبعه في كل مجال يلتحق به، فقد حظي بعناية خاصّة من مسؤولي المقرأة التي لم يكن يتوقَّف نشاطها عند حدود لقاء المسجد بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع، وإنما كان يمتد إلى يوم رياضي شهري أو أسبوعي حسب أحوال الدراسة، ويشمل دورات ومسابقات في ألعاب كتنس الطاولة والشطرنج، ويحتوي على رحلات لصيد الأسماك أو رحلات شاطئية أو نيلية. فوجد شعبان وقته وطاقته كلها موزّعة بين دراسته في المرحلة الثانوية ونشاطه في مقرءة المسجد، بحيث لم يعد له من نفسه شيء يدور خارج هذين الإطارين!
يتولّى توجيهه الأخ محمد سعيد، وهو أحد مسؤولي المقرءة، ويدرس بكلية الحقوق، تتّسم أخلاقه بالدماثة وسلوكه بالاحترام وعقله بالتفتّح، يحاور في صبر ويجادل بلا كلل أو ملل. يصطحبه إلى مناسبات عدّة، فمرّة إلى درس طلاب الجامعة في زاوية من الزوايا التي يشرف عليها طلاب الجامعة من المتدينين. وأخرى إلى عُرس يطلقون عليه عُرسًا إسلاميًا ذا طقوس خاصّة. يلاحظ شعبان أنّ أبرزها عزل الرجال عن النساء، وإلقاء الكلمات الخطابية التي تتعلّق بآداب الزواج يلقيها بعض شباب الدعاة، والاعتماد على المدائح والأناشيد الدينية في الإعلان عن الفرحة والبهجة! ويصحبه محمد سعيد أيضًا إلى عقيقة مولود جديد أو مولودة جديدة لأحد الأخوة.

*****

10

ورث إسلام وشقيقه أحمد من أبيهما البطل نوعًا من الشهامة يندر توفّره في آلاف الشباب!
تقع ورشة النجارة التي تربَّى فيها إسلام وأحمد، بجوار مدرسة فنية ثانوية للبنات. ولك أن تتخيل يا صديقي كمّ التحرش والسفالة والأذى الذي تتعرّض له بضع عشرات من الفتيات كل يوم! لا سيّما عند وقت

الانصراف من المدرسة! وبالتالي حجم المعارك التي يخوضها الشقيقان كل ظهيرة من أجل حماية فتيات لا يعرفانهنّ!

- الشرف أمانة.. العِرض مقدَّس. ولولاهما ما رأيت الموت بعينيّ واحتضنته بصدري كل لحظة طوال سنوات حرب الاستنزاف. عندما كنّا نعبر القناة كنّا لا نفكر في شيء إلا الثأر لشرفنا!

عبارات ظل الأب يردِّدها على مسامع أبنائه كثيرًا حتى انغرست في وجدانهم، وطبعت شخصياتهم. بالقرب من ورشة النجارة ومدرسة الفتيات يقع قسم الشرطة الرئيسي للمدينة البائسة. عبثًا يحاول إسلام إقناع مأمور القسم ونائبه وضع قوة ثابتة من قسم الشرطة تتألّف من أمينين للشرطة ودراجة بخارية على مدخل الشارع الصغير المؤدّي إلى بوابة الفتيات بالمدرسة. وفي كل مرة يفشل فيها في إقناع مسؤولي قسم الشرطة لاتّخاذ تلك الخطوة، يقسم لهم بأغلظ الأيمان وبصوت مرتفع غاضب:

- أقسم بالله العظيم لو أنّني أمتلك بدلة ضابط أو أمين شرطة ولا يحاسبني القانون على ذلك، لقطعت أرجل المتحرّشين من المرور بالمنطقة ودون أن أريق نقطة دم واحدة. ولكنّكم قوم تحبون التحرّش.

في كل مرة يقهقه أمين شرطة فظّ يقف بجوار باب غرفة مكتب المأمور متهكّمًا على انفعال وقَسَم إسلام ويعقِّب في سماجة:

- يا عم دع المتحرش يتحرَّش. الشباب يريدون ذلك. والفتيات يرغبن في ذلك. يتمنَّعن وهنّ الراغبات.

يهمّ إسلام أن يجادله طويلا، يجذبه أحمد شقيقه من ذراعه ويمضي به إلى خارج القِسْم، يهمس له:

- دعك منه يا سُلم. مثل هذا الفظّ الجاهل لا يكاد يفقه شيئًا، وبذل جهدك ووقتك لإقناع أمثاله عمل بلا طائل.

يكزّ إسلام على فكّيه وهو يصيح متألمًّا:

- وهل يرضى هذا الثور أن يحدث ذلك لشقيقاته؟!

يجيبه أحمد وهو يرمقه بابتسامة ذات معنى:

- لعله يرضاه!

لم يكن الليبي هو أوّل من التفت إلى وضعية إيهاب المتميّزة ولا إلى كارزميته المسيطرة. لقد لفت انتباه صالح الكهل الخمسيني بمجرّد أن أبصره بجواره، وشعر بأنّ وجهه وجه مميّز مألوف بالنسبة إليه. خُيّل إليه أنّه لا بدّ أن التقاه في مكان ما من قبل، خصوصًا وهو يتعامل مع بعض أمثاله في مجال عمله، وهم في الغالب شباب ذوو حيثية. لكنّه ذكّره بشخص يعرفه حقّ المعرفة. حاول أن يجهد ذاكرته التي يبدو أنّ جزءًا منها قد فقد بياناته من هول ما جرى له قبل قليل. خمَّن اسمًا حاول أن يسأله إن كان هو صاحب هذا الاسم. كان صالح يعرف أنّه يخترع اسمًا ليصحِّح له الفتى فيتذكَّر أين التقاه.. لكنّ الفتى كان أحضر بديهة منه رغم الموقف، فأجاب متهكّمًا:

- لا يا حاج أنا محمود عبد العزيز إن شاء الله.

أدرك صالح بعد فوات الأوان أنّه سأله عن اسم الممثل الشهير (محمود ياسين) فحصل على تلك الإجابة الساخرة، فاكتفى بخيبة أمله إذ أبدى تلك السذاجة الطارئة عليه.

حاول الليبي تجاذب أطراف الحديث مع إيهاب، الذي تجاهل محاولته الأولى، فكرّر الليبي الحديث بإصرار يجمع بين السماجة والعفوية، كأنّه لم يفهم رسالة التجاهل الأولى. وأخيرًا قال الليبي بلا مواربة:

- أشعر أنّك شخص مهمّ ذو مكانة مرموقة. وأكيد أنت حضرة الضابط الذي سيحقّق معنا.

تجاهل إيهاب للمرّة الثانية حديث الليبي المرسل. فعاد الليبي يسأل دون أي شعور بالمهانة، أو احتقار نظرات إيهاب الواضحة لهيئته وأسلوبه، قال:

- ما اسم الكريم؟

يضطرّ إيهاب هذه المرّة للإجابة، ولو بنبرة تهكّمية ساخرة:

- أنا إيهاب من أول أمس إن شاء الله.

لن تفلح محاولات الليبي التالية لفكّ عقدة لسان إيهاب، مهما تكرّرت. أتى صوت أذان الفجر من مسجد بعيد، فقطع تكرار المحاولات اليائسة، تيمّم صالح بضربه على الحائط الخلفي لمكان الحجز، ثم مسح بما خرج

في يده من تراب قديم متراكم وجهه وذراعيه، لمحه بعض الشباب، ففعلوا مثله، وهكذا تطوّع صالح بالأذان لإقامة صلاة الفجر، وقدَّم أحد الشباب الأربعة الذين شمَّروا للصلاة، ليؤمّ المصلين.. كانوا جميعًا خمسة فقط ليس من بينهم إيهاب!

انتهت الجولة الأولى من التحقيقات الأولية والتي على ما يبدو اقتصرت على تدوين البيانات الرسمية التي تخصّ كل فرد من المحتجزين، مع السؤال عن سبب تواجده في الميدان الكبير في تلك الساعة التي حدثت فيها الأحداث. خرج إيهاب من أول أمس إن شاء الله من غرفة التحقيق، وسُمح له برفع العصابة عن عينيه، فارتدى قميصه الذي كان معصّبًا به، وقد انحلّت عقدة من لسانه، حكى أنّه قال للمحقّقين:

- أريد جهة سيادية تُحقّق معي.

أجابه المحقّق:

- اطمئنّ نحن جهة سيادية.

- لا، من الواضح أنّكم لا تعلمون من أنا. ولذلك فأنا أريد جهة سيادية عُليا. لن أتحدّث إلا أمامهم.

فطلب منه المحقّق أن يطلعه على رأيه في أداء الحكومة؟ فأجابه شارحًا له الخطوط العريضة لاستراتيجيات الدولة، كما سأله:

- هل تدرك حضرتك يا فندم معنى انخفاض معدّل التضخّم بنسبة واحد واثنين من عشرة في المائة؟ ومعنى انخفاض إجمالي الدين العام بمبلغ أربعين مليار جنيه؟ وأثر ذلك على فرص نمو الاقتصاد القومي؟!

وهنا صرفه المحقّق قائلا في ابتهاج:

- ستكون لنا لقاءات قادمة يا سيد إيهاب. من الواضح أنّك ملّم جيّدًا بمدى التطور الإيجابي في عمل الحكومة.

- لا تنسَ يا فندم. أنا أريد الجلوس مع جهة سيادية عُليا.

تمتم المحقّق:

- إن شاء الله يا سيد إيهاب. إن شاء الله!!

12

انتهت عملية التحقيقات الأولية، التي تمّت بصورة انفرادية لكل محتجَز على حدة، ورفع السادة الأُمناء العُصابات من على عيون المحتجَزين جميعًا، وتفضَّلوا بالسماح لهم بارتداء قمصانهم وألبستهم الفوقية. وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، والارتياح المشوب بالتوتّر يكسو وجوههم، كأنّهم وقد خرجوا من مرحلة التحقيق المبدئي قد نالوا حرية مشروطة!

كل واحد منهم يحاول أن يلتمس مما جرى مع الآخرين بصيص ضوء، أو يستشفّ ما ستسفر عنه أحداث المستقبل القريب، الليبي هو أكثرهم ثرثرة، كان في حالة اطمئنان حقيقية، والليبي شاب عشريني طويل القامة، بدا أنّه أطول قامة من إسلام الشحات، ومن حامد الترزي، نحيف الجسد حتى يخيَّل إليك وأنت تنظر إليه أنّه عود متين من الخيزران. وهو يعمل عامل باليومية على شواية فحم في مطعم الحاتي (كُفتجي). ولا يمكن أن يُذكَر الليبي إلا ويُذكَر معه تابعه ميشو، ميشو في مثل عمر الليبي تقريبًا، نحيف الجسد مثله، ولكنّه متوسِّط الطول، يمشي ويتحرَّك ويتفاعل مع العالم في ظلال الليبي أو تحت إبطه، كأنّه جزء منه بحيث لا تقوم له قائمة بمفرده، وهو على العكس تمامًا في سلوكه من الليبي، الليبي بطبعه ثرثار صخَّاب جهوري الصوت مرتفعه، كثير الحركة لا يكفّ عن السير والدوران في المحل، بينما تابعه ميشو خفيض الصوت حتى لا تكاد تسمع له حسًّا، قليل الحركة مرتبكها، بل صوته أو حركته يأتي كأنه رجع صدى لصوت الليبي وحركته، أو هو الظل الباهت له. والليبي وتابعه ميشو حريص كل الحرص على تحفيظ المحتجزين جميعًا قصّة القبض عليهما، وكأنّ تلك القصّة ستكون ضمن الأسئلة المقرّرة على المحتجَزين في التحقيقات التالية!

الليبي وميشو يستقلان دراجة بخارية رفقة صديق ثالث يجوبون شارع يبعد عن الميدان الكبير نحو كيلومترين، ويستعدُّون لقضاء سهرة صاخبة حتى الصباح، بحوزتهم زجاجة ماء معتَّق (ويسكي) أو نوع آخر من الخمور، عندما انشقّ الشارع شبه الفارغ في هذا الوقت من المساء، عن سيارة شرطة أتت مسرعة. تقدَّمت نحو الدراجة البخارية يسبقها

صوت السرينة المزعج.. كان صديق الليبي وميشو هو الذي يقود الدراجة البخارية، فضغط على منظِّم البنزين، فانطلقت الدراجة في سرعة جنونية، وظلت سيارة الشرطة تطاردها، حتى اضطرّ قائد الدراجة إلى الدخول في حارات ضيقة، وفي لحظة ارتطمت بأحد الأرصفة سقط ميشو جاذبًا الليبي معه، بينما استطاع صديقهما قائد الدراجة تعديل وضعها وأطلق لها العنان للفرار عبر دروب ضيقة متعرّجة لا يمكن أن تدخلها سيارة الشرطة، مصطحبًا معه زجاجة الماء المعتّق، هكذا وقع الليبي وتابعه ميشو في قبضة رجال الشرطة، وهم يظنون أنّ مطاردة الشرطة لهم بسبب وجود زجاجة خمر معهم!

لم تكن هذه القصة هي الحقيقة على وجه الدقة!

تساءل المحتجزون عن مصائرهم بعد انتهاء التحقيقات الأولية، والتي استمرت مع إجراءات تسجيل بياناتهم، واستعراض القوة والحزم الذي قدَّمه السادة الأمناء، من قبل منتصف ليل الجمعة إلى قرب الساعة السابعة والنصف من صباح السبت، هل سيصرفونهم بعد تلك الإجراءات الروتينية إلى بيوتهم وأهليهم؟ أم سيتمّ عرضهم على النيابة العامّة بتهمة ما ليست أقل من مقاومة السلطات؟! كان الاحتمال الأكثر إثارة للرعب في النفوس هو تحويلهم إلى جهاز الأمن الوطني للتحقيق معهم هناك.

إجابة مبدئية على تساؤلاتهم جاءت في صورة حضرة الأمين النشيط الذي تقدَّم نحوهم بالخطوة السريعة وبمنتهى النشاط، وعلامات المرح والتفاؤل تطل من وجهه المربع، وتسيل على شاربه الكث، أمرهم باتّباعه، أدخل مفتاحًا ضخمًا في قفل صدئ أكثر ضخامة في باب حديدي مصمت وكئيب. وأمرهم بالدخول. العنبر خالي، أرضيته أسفلتية حائلة، لم تكن تلك الأرضية تحتوي سوى على أعداد كبيرة من قوارير المياه الغازية البلاستيكية. السقف عالٍ مرتفع كأسقف المصانع الكبرى، يسمع الداخل هدير شفَّاطات كهربائية عملاقة مسؤولة عن تجديد الهواء داخل العنبر. ويختفي خلف ملائتين مهترئتين متسختين، ما سيعرف المحتجَزون حالا أنّهما دورتا مياه.. هذا هو كل شيء. بعد أقل من نصف ساعة أقبل الأمين ومعه ثلاثة جنود ألقوا عددًا من البطاطين الخشنة في

وسط العنبر، تسابق المحتجَزون على الحصول على نصيبهم منها، عدد البطاطين لا يكفي عدد المحتجَزين!

*****

13

القَنِّي يتقاضى أجرًا معلومًا لقاء مهارته في نسخ الكنز، ولقيامه بهذه المهمّة الخطرة في غياب والده عن الورشة، أو بالأحرى يتسلّل ليفتح الورشة ليلا في غير أوقات العمل، ليقوم بهذا العمل الذي يمنعه من أن يفر من الدنيا ويعيق الدنيا عن الانفلات من بين يديه!! لكنّ الدنيا ظلت تمارس لعبتها بالفرار منه، فينُفق أكثر مما يربح في المزاج، وتعاطي بعض أنواع الحبوب بطريقة محسوبة بعناية خوفًا على صحته الفتية!!

عندما يكتشف الحاج لعبة القَنِّي سيصفعه على وجهه ربما لأوّل مرة منذ سنوات طويلة، ويصرخ في انفعال:

- لن تدخل هذه الورشة مرّة أخرى وأنا على قيد الحياة.. أنت خُنت الأمانة يا قَنِّي. البيت لن أستطيع أن أطردك منه. أنت خائن وأنا غاضب منك، وحزين لأجلك. لكنّك تبقى ولدي على كل حال.

يخرج القَنِّي من الورشة لا يلوي على شيء. لا يستطيع أن يرفع صوته في وجه أبيه ولا في حضرته. كما ظل لا يدخِّن أمامه أبدًا!

بواسطة من بعض المعارف والأصدقاء يتقدَّم القَنِّي إلى وظيفة موظّف أمن أو مساعد كاشير في أحد الهايبرات الكبرى في مدينة ساحلية مجاورة لمدينته. يتنفَّس القَنِّي هواءً نظيفًا كاد أن ينساه بعيدًا عن ورشة صهر المعادن، يقول لأصدقائه:

- شيء عظيم أن تعيش الدنيا بصدق. أن ترى العالم. أن تتنفَّس هواءً نظيفًا، وتنتعش من أثر رائحة جو معطّرة بيود البحر، وترى شوارع نظيفة وواسعة بها إشارات مرور وخطوط مرور مشاة. ترى بشرًا في منتهى الأناقة. و(مُزز) آخر إصدار. (موديل) هذا العام. بنات تكتفي بالنظر إليهنّ كأنّهنّ معروضات خلف فاترينات عرض مبهرة

الألوان والأضواء. كنت أخاف من الحديث معهنّ على اعتبار أنّهنّ لسن من جنس البشر. الآن يتعاملون معي كصديق.

- صغَّر أحلامك يا صديق!

- من حقّ الإنسان على الأقّل أن يحلم. ألا يكفي أنّنا لا نستطيع تحقيق أحلامنا؟!

- الأحلام بحر أعمق من البحر الذي تسهر أمامه كل ليلة. أخاف عليك من الغرق فيها يا صديق.

- ماذا يقول حكيم الشعراء؟ لو بطلنا نحلم نموت. ليس حرامًا أن أحلم بالنظافة والجمال.

- القَنِّي صار نظيفا يا جدعان.

- ودخلك الشهري على هذه العظمة يا قَنِّي، كبير؟

يلوي القَنِّي شفتيه ويزوم:

- راتبي لا يكفيني سجائر وكيف. لكنّ المسألة ليست مسألة راتب يا شباب. المسألة مسألة حياة أخرى نظيفة وجميلة.

- ولماذا يعمل الناس إذا كانت المسألة ليست مسألة أجر؟! وأنت نفسك يا قَنِّي لماذا تعمل وتترك حارتك وأهلك ومدينتك كلها؟ أليس من أجل الراتب؟!

- أنت أجبت عن نفسك بنفسك يا صديقي. أنا أعمل من أجل أن أغترب عن حارتي وأهلي ومدينتي كلها. هذا بالنسبة لي هدف أسعى إليه. هذا هو مكسبي الحقيقي، أن أعيش بجوار البحر أو قريبًا منه. تعرفون؟!

- نعرف ماذا؟ قل يا حكيم الحكماء.

- عندما أشعر أنّني مخنوق أو مهموم أو مكتئب. أذهب لأجلس ساعة في عمق الليل على الكورنيش أمام البحر وأظل أناجيه. أرمي فيه همومي. في عز الشتاء وبرودته أجد نفسي كأنّني اغتسلت بمائه كله.

- هاهاها

- القَنِّي الذي كان يتلجلج في الكلام أول أمس أصبح شاعرًا.

- بركاتك يا بحر.

يسكن القَنِّي في سكن المغتربين الخاص بموظفي الهايبر المغتربين، ويتمتّع بحياة الحرية بلا قيود بعيدًا عن أبيه وتوجيهاته وحكمته، تعلّم تدخين الحشيش، وتناول أنواعًا جديدة من الحبوب المخدِّرة، وجرَّب تعاطي الخمور. كان كما يقول لا ينام حتى يسكر طينة!!

يتعامل القَنِّي مع عمله في المول الكبير بمزاجية كاملة، يقول:

- أنا آخذ حقي وهم يأخذون حقهم. فمن حقي أن أتأخّر أو أتغيّب أو أنفعل على أحد الزبائن إن لم يعجبني تعامله، ومن حقهم أن يخصموا لي من راتبي!!

راتب القَنِّي ألف ومائتا جنيه في الشهر، وهو يعلم أنّ ثورة قامت في مصر في يناير عام 2011 وأسقطت رئيس جمهورية، ومن أهمّ مطالبها رفع الحدّ الأدنى للأجور للوظائف الحكومية إلى هذا الرَّقَم! معنى ذلك أنّ خريجي الجامعات يكافحون للوصول للأجر الذي يحصل عليه من عمل في مكان مرموق ومتميّز رغم كونه خريج دبلوم متوسط! ومع ذلك هو لم يكافح من أجل الحصول على هذا الراتب ولا أكثر أو أقل منه. القَنِّي يكافح ليكون مزاجه عالٍ، ومزاجه لا يصل إلى قمّته إلا بعد تدخين سيجارة محشيّة بالحشيش، وتناول بعض عقاقير الجدول التي يحصل عليها مقابل عشرة أضعاف سعرها المحدّد لها أو أكثر من ذلك!! وعندما يفيق ويذهب إلى العمل يقع الخصم الجائر، نصف ساعة أو ساعة تأخير يقابلها خصم نصف يوم من الأجر، وغياب يوم يقابله خصم يومين، وسوء معاملة الزبائن تصل عقوبتها إلى خصومات تُرضي المدير المباشر، إضافة إلى السلَفِيّات التي يحصل عليها القَنِّي تحت حساب الراتب ليصرف منها على الكيف وتعلية المزاج. في نهاية كل شهر يجد ما يتبقّى له مائتان وخمسون جنيهًا أو أقل أو أكثر قليلا حسب الظروف!! هذا ليس عدلا وهو يحب العدل، لذلك وجد طريقا لتحقيق العدالة والحصول على حقه المهدور ظلمًا وعدوانًا.

يدخل القَنِّي إلى قسم الملابس الجاهزة في بداية كل شهر وعقب استلام الراتب المنقوص بغير وجه حق!! يقوم باختيار سروال وقميص على أعلى مستوى وأحدث صيحة، ثمّ يتلكّأ هنا وهناك بحجة القيام بالقياس. والقَنِّي يعرف مخابئ كاميرات المراقبة وأوقات راحة العاملين عليها أو

تبديل ورديات عملهم، أو فتورهم المعتاد لتناول كوب من الشاي أو القهوة. في هذه اللحظة يتقدَّم بخفّة ورشاقة وثقة إلى مكتب الأمانات ويسلِّمه السروال والقميص ويقول له:
- الله يخليك. ضع لي هذه الأمانات عندك حتى ينتهي وقت عملي سآتي لأخذها ودفع ثمنها للكاشير.
- ولماذا لا تتركها على الرفّ مكانها يا قَنِّي حتى وقت انصرافك؟
- يا ليتها تبقى إلى وقت انصرافي يا (برنس) ولا تُباع. هذه آخر قطعة من كل نوع تحمل اللون الذي أفضِّله والمقاس المناسب لي.
- ماذا؟؟؟
- يعني إذا وجدت نفس الألوان فلن تنفعني القياسات المتبقية، والتي سيناسبني قياسها ليست بالألوان التي أريدها. انظر إليها جيّدًا. دقِّق النظر. ألست معي أنها متناسقة وفي قمّة الأناقة؟
- بالصدق هي تليق بك يا قَنِّي.
- إذن لا تحرم أخاك من هذه الخدمة البسيطة.
- حاضر يا قَنِّي، لا تتأخّر عليَّ بعد انتهاء العمل.
- عيب يا كبير. قل يا قَنِّي تجدني أمامك ورهن إشارتك.
يترك القَنِّي طقم الملابس الجاهزة الجديد، إلى فترة العمل التالية، ثمّ يأتي من النافذة الخارجية حاملا رَقَم إيداع الأمانات إلى الموظّف البديل في قسم الأمانات ويستلم طقمه الأنيق دون أن يدفع قرشًا واحدًا، ويغادر منتشيًا. استردّ باقي أجره المخصوم منه ظلمًا دون كثير مشقّة.
كل شهر يتفتق ذهن القني عن حيلة جهنمية مبتكرة يحصل بها على ما يظن أنه حقه المنهوب لدى المول الذي يعمل به.

عندما التحقت حنان بالمعهد العالي للعلوم والتكنولوجيا، أصبح في حاجّة ماسة لأن يطوِّر علاقته بها من حالة الخِطبة الشفوية العُرفية إلى عقد زواج رسمي.

ولن يعرف أبدًا أنّ الشجار الذي شبَّ بين أُمه وأُم حنان زوجة خاله، والذي سرعان ما تحوّل إلى خصومة فقطيعة، فعداء مستحكم. كان بسبب إلحاح أُمه على زوجة أخيها بشأن تعجيل زواج أشرف من حنان. أُمه تطلب بالعشم القديم، وأُم حنان تُسوِّف مدفوعة بالطموح في مستقبل أفضل لابنتها الجامعية مع رجل من مقامها. أخيرًا تشجَّعت أُم حنان وواجهت أُم أشرف بالحقيقة العارية:

- حنان ليست لأشرف يا أُم أشرف، والزواج قسمة ونصيب!

كسرت شيئًا في قلب الأرملة المكلومة. فردّت عليها مستفسرة متسائلة. أجابتها في قسوة وحزم:

- ابنتي حنان ما شاء الله عليها تدرس الآن بالجامعة يا أُم أشرف، وستصبح مهندسة كمبيوتر قدر الدنيا. ولا مؤاخذة أشرف ابنك أسطى ميكانيكي.

- وماذا به الميكانيكي يا أم حامد؟! ما الذي يعيبه؟ كسّيب وشاب مثل الفل، وسامة وأناقة وألف بنت تتمناه.

التقطت أُم حامد طرف الخيط، قالت:

- فعلا ابنك أشرف (اسم النبي يحرسه ويصونه)، زين الشباب وألف بنت تتمناه. لكن ابنتي المهندسة حنان ليست من هؤلاء الألف.

- لا تنسي يا أُم حامد أن ابني أشرف تربية خاله وتربيتك أنت أيضًا يا امرأة. يعني لا فارق بينه وبين حامد وحنان أبدًا لا في الأخلاق ولا في الثقافة ولا في الأدب.

- لا يمكن لأحد يا أُم أشرف أن يُنكر ذلك. لكنّها القسمة والنصيب كما ذكرت لك قبل قليل. وربنا إن شاء الله يعوضه عن حنان ببنت الحلال. ويرزق بنتي حنان بابن حلال من مقامها ومن مستوى تعليمها. تطوَّر الجدال إلى شجار أدَّى بالأحوال إلى ما آلت إليه. ستكتم سبب قطيعتها لزوجة أخيها، ومن ثَمَّ منزل أخيها عن أشرف كي لا تجرح

مشاعره. وسيكتم أشرف عن أُمه شعوره وحنقه على تصرّفها الأهوج، هي وزوجة خاله، فلو تريّثت ريثما يعقد زواجه على حنان بلا تعقيدات. وكان يظنّ أنّهما تشاجرتا بسبب ما مما تتشاجر عليه النسوة من أمثالهنّ! كل الذي سيعرفه لاحقًا أنّ شيئًا ما انكسر بين بيته وبيت خاله. حنان ظلت في شعورها به كما كانت دائمًا، وإن اعتراها شيء من اضطراب وتوتّر، أو قلق من مجهول. خاله لم يعد حفيّا به كما كان في السابق. وزوجة خاله وضعته في سلة واحدة مع أُمه وصنَّفته في خانة الخصوم وأقفلت قلبها دونه. وتحوَّلت علاقته بحامد إلى جفاء لم يتطوَّر إلى قطيعة بعد.

ثمّ ما لبث حتى أصبح وجوده في بيت خاله أو في صحبة حنان غير مرحَّب به. يُعرب لحنان عن قلقه ومخاوفه فتبادله خوفًا بخوف، فتتجسَّم له المخاوف كغول عملاق يريد أن يبتلع سعادتهما! ومع تعبيرها عن هواجسها تؤكِّد له حبها كثابت من ثوابت الحياة.

قال لها وهو يمضي بجوارها في طريق عودتها إلى منزلها:

- لم أعد أحتمل معاملة خالي وزوجته وابنه. لا أعرف ما الذي جرى لهم. أتصبَّر من أجلكِ أنتِ فقط يا حنان.
- حتى أنا يا أشرف لم أعد أحتمل معاملتهم لي ولا لك. الحياة في البيت أصبحت مزعجة إلى حدّ لا يطاق!
- وما العمل يا حياتي؟
- صدّقني يا أشرف لست أدري.
- لا حلّ أمامنا إلا أن نتزوج.
- وهل يوافقون يا أشرف؟
- أنتِ خطيبتي منذ كنتِ في المهد صبية. والجميع يعرفون أنّكِ لي.
- يا رب يا أشرف. يا رب. والله أنا أكثر منك أتمنّى أن يتمّ زواجنا بلا عقبات. أعصابي لم تعد تحتمل.
- غدًا أزور خالي وأفاتحه في الأمر.
- لا أظنّه يوافق.

سأبذل جهدي وسيوافق إن شاء الله.

يمضي شعبان مع الركب سعيدًا لا يعكِّر صفو مزاجه شيء، فمجتمع المقرءة يوفِّر له محضنًا اجتماعيًا وأخلاقيًا وثقافيًا يتواءم مع خُلقه وتربيته المنزلية، ويعزله شيئًا فشيئًا عن أقران السوء، وعن مجتمع مراهق في مثل سنه لا يكاد يدور تفكيره بعيدًا عن حلقة الجنس والإيقاع بالفتيات القاصرات! فتتجاوب نفسه المفطورة على الطُّهرانية مع المجتمع الجديد وينصهر فيه، وتمضي السنوات وتعنُّ له الأسئلة القلقة والأفكار الاعتراضية. لم تكن لديه أيّة شكوك حول القيم الأخلاقية التي يقدِّمها مجتمع مقرءة المسجد. لكنّه ومع دخول المرحلة الجامعية والالتحاق بكُلّية الهندسة بالذات، يلحظ صراعًا معلنًا بين أطراف عدة داخل مجتمع الجامعة، أبرز هذه الأطراف طلاب يمثِّلون توجّه النظام الحاكم ويروِّجون لما يروِّج له الإعلام الرسمي للدولة، أو الإعلام المرضي عنه حكوميًا، كانت أبرز أنشطة هؤلاء الطلاب تشجيع الاختلاط بين الجنسين بحيث يصل إلى حد الصداقة منضبطة أو غير منضبطة بين الشباب والفتيات، وإقامة حفلات الغناء والموسيقى الصاخبة أحيانًا والناعمة نادرًا، وخروج الرحلات التي تتيح للجنسين أكبر مساحة للاختلاط والانطلاق والحرية التي تكاد تبدو بلا حدود!!

وطرف آخر له حضوره القوي اللافت يضمّ تحت لواء شعاراته الدينية الرنَّانة معارفه وأصدقاءه ممن تربّوا في مجتمع المقرءة والمقارئ الأخرى المنتشرة في أغلب المساجد، وقد تمّ وسمهم بطلاب التيار الإسلامي، أو أعضاء الجماعة الإسلامية. الجماعة الإسلامية تلك في بداية الألفية الثالثة في جامعات الوجه البحري عمومًا كانت الأقرب إلى فكر الإخوان المسلمين، تمييزًا لهم عن الجماعة الإسلامية في صعيد مصر التي عُرفت عنها، في نفس الحقبة، مواجهات مسلّحة مع الحكومة. وكانت فعاليات هذا التيار تعتمد على إقامة الندوات الدينية والتثقيفية، وتوزيع المنشورات المناهضة للحكومة أحيانًا، وإقامة التظاهرات استجابة لمستجدّات القضايا القومية الكبرى مثل قضية فلسطين والعراق وغيرها!!

ثمّة طرف ثالث كان يفرض حضوره بقوة داخل مجتمع الجامعة يمثِّل المدرسة السلفية الإسلامية، وكان هذا الطرف هو الأقل عددًا وأنصارًا، غير أنّه كان يثير صخبًا وجدلا شديدًا لاعتماده على مظاهر تبدو غريبة على ثقافة وواقع المجتمع المصري. وبدا أنّ هذا الطرف قليل العدد قوي الحضور، منشغلا في المقام الأوّل بمناكفة طلاب تيار الجماعة الإسلامية ومحاولة تفنيد دعوى تمثيلهم لأخلاقيات الإسلام الصحيح!!

*****

16

قبل ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ألفين وأحد عشر، كان إسلام عضوًا فعّالا في حزب الكنبة، وهو حزب عريض ينتظم أغلب أبناء الوطن، فيما أطلق عليه الكاتب الصحفي إبراهيم سعده: (الأغلبية الصامتة)، وتُحتّم عضوية هذا الحزب على أعضائه من أمثال إسلام الشحات، أن يكون اهتمامه بالشأن السياسي اهتمامًا هامشيًّا في أضيق نطاق، وهو يمارس السياسة من مقاعد المتفرجين في مدرّجات الدرجة الثالثة. أما الروح الوطنية التي كان يغذِّيها الأُسطى حماده بطل حروب الاستنزاف والعبور، فيترجمها إسلام وأشقاؤه وأبناء جيله في صورة الشهامة والأصالة ونجدة المحتاج، كما تتجلّى في أوج تألّقها حينما يلعب المنتخب الوطني لكرة القدم مبارياته في كأس الأمم الأفريقية، فتُرفع الأعلام الوطنية لتزيّن شرفات المنازل، وتُرسم على الوجوه والخدود، وتهتف الحناجر:

- مصر.. مصر

ثمّ ترتفع أصوات المكبِّرات من مختلف المقاهي والمَحَالّ التجارية، بعد تحقيق الفوز:

(والله وعملوها الرجالة ورفعوا راس مصر بلدنا)!!

أجمل ما في هذه المناسبات الوطنية الجليلة أنها تنطلق تحت رعاية الحكومة، وبحضور على مستوى رأس الدولة إذا أُجريت المنافسات في

القاهرة، وكان منتخب الساجدين، كما أُطلق عليه في العشرية الأولى من الألفية الثالثة، مهوى أفئدة كل فئات الشعب المصري، داعبت سجداته الشهيرة فطرة الشعب المصري المتديّن بطبعه، كما عُدّت انتصاراته الكُروية مشروعات قومية كبرى، تزيد قيمتها ربما عن افتتاح مشروع بحجم مشروع توشكى، إحدى هذه المنافسات الكُروية كادت أن تتسبّب في أزمة دبلوماسية شديدة الخطورة مع الشقيقة الجزائر!! كما لا ينسى إسلام الشحات مشهد السيدين علاء وجمال مبارك نجلي الرئيس وهما يرقصان في غرفة خلع ملابس لاعبي المنتخب بملعب 11 نوفمبر بالعاصمة لواندا بأنجولا فبراير 2010 ويغنيَّان مع شباب الأولتراس:

- زي م قال الريس. منتخب مصر كويس!!

في رسالة مؤدّاها تماهي الرئيس وأسرته مع عموم الشعب المصري حرافيشهم ووجهائهم. هذه الحالة الوطنية البهيجة، لم تكن تمرّر صعوبات الحياة اليومية والعقبات الكؤود التي يقابلها الشباب في كل مكان فحسب، لكنّها تربط صورة الوطنية في ذهن إسلام الشحات بالنظام الحاكم، فمن دواعي هذه الوطنية المتأجّجة إذن، الإيمان العميق بوجوب استقرار هذا النظام الوطني، والاصطفاف معه ضد مناوئيه الذين يصَنَّفون لا شعوريًا في نفس إسلام، في خانة أعداء الوطن!

*****

17

بعد نحو نصف ساعة أخرى فتح حضرة الأمين الباب الحديد الصدئ المصمت، وارتفع صوته بغلظة:

- ادخلوا يا أساتذة.

دخل العنبر على وجل، ستة أشخاص مختلفي الأعمار. ألقوا السلام وتكوّموا في ركن من أركان العنبر متحلِّقين حول أنفسهم، كان من الواضح أنّهم مجموعة واحدة متجانسة.

بعد ذلك أصبحت صدور المحتجزين تنقبض كلما سمعوا صوت خشخشة سلسلة مفاتيح حضرة الأمين قبل أن يضعها في قفل باب العنبر. لم تعد أرضية العنبر الأسفلتية المقلقلة تتحمّل أيّ فرد إضافي، وكذلك

البطاطين، لقد كان نصيب كل فردين من المحتجزين نحو بطانية ونصف، وكانت هذه البطاطين يفترشونها فوق تلك الأرض الأسفلتية غير المستوية، ليضعوا عليها جنوبهم أو ظهورهم، ثمّ يستلقوا للنوم بلا أغطية. الجوّ في مثل هذا الوقت من العام كان معتدلا بحيث لا يشعر المحتجزون بحرّ حرور أو برد زمهرير.

لم يكن الكهل الخمسيني صالح عندما أُلقي به في عربة الشرطة بعد سحله بعرض الميدان، وضياع هاتفه المحمول ونظارة نظره في حال تسمح له برؤية الأحداث خارج عربة الشرطة المظلمة من الداخل، لكنّه استطاع أن يحدس أنّ الفتى الذي حمله مجموعة من المخبرين ودلقوه بجواره على مقعد السيارة، هو الشاب العملاق الذي أرسلته السماء لمحاولة الدفاع عنه قبل عملية إتمام القبض عليه، لأنّ صوت عراك هذا الشخص كان يأتيه داخل السيارة ويقترب منذ بدأت عملية السحل، وهو لم يسمع شخصًا آخر من المقبوض عليهم يتشاجر مع أفراد الأمن غيره، فالباقون كانوا يدخلون إلى العربة أو يُحملون إليها وهم يصيحون:

- ما هي جريمتنا؟ نحن لم نفعل شيئًا. لماذا تقبضون علينا؟

أو نحو ذلك من الاحتجاجات والتوسّلات. لكنّ صاحب هذا الوجه الأبيض السمين كان يرغي ويزبد ويسبّ ويشتم بأقذع الشتائم، وظل يقاوم حتى انخلع كُمّ قميصه في يد أحد المخبرين. ولقد ميّزه صالح عندما أبصره داخل عنبر المحتجزين. كان حمدي الترزي ذا صوت قوي جهوري مثل الليبي، لكنّ صوته كان أفخم، وكان صخبه محسوبًا إلى حد ما. وفي الوقت الذي انطلقت فيه ألسنة المحتجزين، أو أغلب ألسنتهم، تروي كيف تمّت عملية القبض عليهم، وماذا كان يفعل كل منهم قبل القبض عليه. فإنّ حمدي الترزي التزم الصمت رغم أنّ ذلك كان ضد طبيعته، لكنه لم يُرِد أن يجرح مشاعر الكهل الخمسيني، أو يجعله يشعر بأنّه هو السبب في إلقاء القبض عليه، لم يكن يريد أن يضع ضغطًا نفسيًا إضافيًا على هذا الكهل. لكنّ صالح هو الذي سيذهب إليه ويمدّ إليه كفّه بالسلام، ثمّ يسأله بصوت مسموع لكل من في العنبر:

- لماذا اشتبكت مع المخبرين والأمناء في الميدان الكبير، في أثناء عملية القبض عليّ وأنت لا تعرفني من قبل؟
بسط حمدي الترزي كفيه كمن يُقرّ بحقيقة دون توضيح لدوافعها. استطرد صالح:
- لقد ورّطت نفسك يا بني، وقد قُبض عليك بسببي دون أن يكون لك أي عِلاقة بالموضوع.
أجاب حمدي هذه المرة بعفوية:
- لقد شعرت بغليان الدم في عروقي عندما رأيت هؤلاء يهجمون عليك. وأنا كنت أنظر مصادفة ورأيت أنّك لم تكن لك عِلاقة بما يحدث عند فسقيّة الميدان. لقد كنت تسير بعيدًا على الرصيف المقابل.. لقد أفزعني أن أرى رجلا كبيرًا أشيب الشعر واللحية يُقبض عليه وباستخدام هذا العنف المبالَغ فيه، مع رجل ربما يقارب في العمر عُمر والدي. فلم أملك نفسي وانقضضت عليهم. ولكن ما يغيظني أنّني خلّصتك فعلا من بين أيديهم، فلماذا لم تُطلق ساقيك وتلوذ بالفرار؟!
- أنت فعلا قمت بتخليصي، لكن دُفعة ثانية من المهاجمين كانت حركتهم أسرع حتى من تفكيري.
قال حمدي بأسف:
- كنت أتمنّى أن تنجو من أيديهم. أو. أو ينجو واحد من بيننا على الأقّل.
ربّت صالح على كتفه وهو يهمس في تأثّر:
- لقد ورّطتك معي يا ولدي. أنا آسف حقيقة. لكنّني سأظل شاكرًا لك شهامتك ومروءتك.
أضاف حمدي في أسف:
- لقد تمنّيت.
ثمّ رفع كفيه بحركة مؤدّاها لا حيلة لنا، وكفّ عن الكلام.

يزور القَنِّي فرع المول في مدينته في أثناء إحدى العطلات، تثير انتباهه فتاة قسم الميك آب، يتودَّد إليها يدندن:

- أحلى حاجة بحبها فيك هي دي. أيوة دي.

نظراته تلتهم مؤخّرتها التي تكاد تنفجر داخل (legging) ملتصق باللحم. تمتعض الفتاة، وبغمضة عين يجد القَنِّي نفسه في قبضة رجل أمن عملاق، لم يمكِّنه حتى ولو جزءًا من الثانية للإفلات. في الحقيقة القَنِّي لم يكن بمفرده في زيارة المول، معه صديقه نبيل وهو نفسه قياس اثنين في ثلاثة، ويعادل تقريبًا حجم فتى الأمن العملاق الذي سيطر عليه وشلّ حركته. يبدو أنّ (المُزّة) المدلّلة كانت رفيعة المقام في فرع المول، وإلا لاكتفوا بطرده خارجًا كما يفعل هو مع المتحرّشين في الفرع الذي يعمل به!

خاصّة أنّه لم يستخدم أيًّا من حواسّه في الإساءة للفتاة، لم يُعبِّر عن إعجابه سوى بالغناء، ونظرة عين موجّهة باحتراف متحرّش خبير. صديقه نبيل لن يتركه وحيدًا في ورطته، سيدخل معه إلى غرفة الأمن حيث يستعين فتى الأمن العملاق بزميل عملاق آخر، ومع ذلك قد تبدو الكفّتان متكافئتان على نحو ما!!

العملاق الإضافي يقيس قوة غريمه نبيل بنظرات فاحصة سريعة، ويسدِّد نظرة عتاب مستترة إلى زميله القابض على ذراع القَنِّي. وبحسبة ذكية يطلب من زميله إفلات القَنِّي ليوجّه له نصيحة رقيقة، تبدو كقطعة من المحفوظات يتمّ إلقاؤها في مثل تلك المناسبات:

- اعتبرها شقيقتك يا (برنس). ما بدَر منك لا يصحّ.

يحفظ القَنِّي هذه القطعة المأثورة عن ظهر قلب، ويردِّدها كثيرًا في مثل هذه الظروف.

أجابه في لا مبالاة:

- أنا لم أفعل سوى أنّني كنت أردِّد أغنية تامر حسني بنفس إشاراته.

ضحك العمالقة الثلاثة، وسرعان ما حدث التعارف وأدرك موظّفا الأمن أنّ القَنِّي زميل في فرع من فروع المول الشهير، وتحوَّل التعارف إلى

صداقة بشكل أو بآخر، ونسي الجميع موضوع (ليجن) (المُزة) الملتصق بلحمها، متغافلين عن مكانتها المتميّزة لدى مدير الفرع!!

*****

19

يطلب أشرف من أُمه الدعاء بإخلاص أن يهدي الله له خاله ويرقِّق قلبه عليه، يرتدي أبهى ثيابه ويذهب لزيارة خاله حاملا معه علبة حلوى فارهة، وباقة من الورود نسَّقها له على أحسن ما يكون صديقه الذي يعمل في محل الزهور. استقبله خاله متجهّمًا. أشار له بدخول غرفة الضيوف على غير عادته. فهو ابن الأسرة ومعتاد على الجلوس معهم في الردهة! بعد أن تركه جالسًا بمفرده في غرفة الضيوف زمنًا، أقبل وعلى وجهه سهوم، وبمعاملة رسمية فاترة تمامًا قدَّم له الشاي في طقوس أكدَّت له كم أصبح غريبًا عن بيت خاله. أدرك كيف يستطيع الإنسان أن يقطع رجاء أو عشم ملتجئ إليه بتقديم أسمى آيات الاحترام الرسمية له، بدلا من إهانته!!

دقّ قلبه بين ضلوعه بعنف، ودارت رأسه، ازدرد لعابه بصعوبة وقرّر أن ينجز مهمّته رغم كل الهواجس التي شغلته، والأجواء المنذرة بعواقب الاندفاع بتقديم طلبه في الوقت الراهن. تردَّد في عقله مَثَل قديم (انتظار البلاء أقسى من وقوعه)، تشجَّع، أو تهوَّر، وفاتح خاله في موضوع الزيارة، جاءه رد خاله قاسيًا وبنبرة باردة لا تحمل حتى ولو قدر من مواساة:

- الزواج قسمة ونصيب يا أشرف. وحنان ليست من نصيبك يا ابن أختي.

حدَّث نفسه:

- جيّد أنّك ما زلت تذكر أنّني ابن أختك!

وبصوت مسموع كسير ومتوسِّل قال:

- ولكن حضرتك يا خالي قرأت فاتحة مع والدي رحمه الله.
- خدعوك فقالوا.

- يا خالي لقد كبرتُ أنا وحنان وكلانا يعرف أنّه للآخر.
- لا أحد يعرف أين ومتى النصيب يا أشرف. ربما كانت أحلام الطفولة والصبا. الآن على كل منكما أن يبحث عن نصيبه.
- يا خالي ولكن حنان لن ترضى بغيري.
انتفض الخال واقفًا، وصاح بانفعال:
- أتريد أن تحرّض ابنتي على الخروج عن طاعتي يا ولد؟!
وقف أشرف متأدّبًا منكّس الرأس وهتف:
- معاذ الله يا خالي. حضرتك الذي قمت بتربيتي وتعرف أخلاقي جيّدًا.
- للأسف لم تنجح تربيتي لك. وأتيت لتهيننني في منزلي.
- السماح يا خالي. ما عاش ولا كان من يهن حضرتك. أنا لم أطلب سوى تحكيم رأي حنان في اختيار شريك حياتها.
صاح الأب بصوت كالرعد:
- لا رأي لحنان يخالف رأيي أنا. هكذا ربّيتها. وهكذا حال البنات المحترمات وحال الأسر المحترمة.
همَّ أشرف أن يجادل خاله محاولا إيجاد أرقّ ألفاظ ممكنة. الخال كان متحفّزًا غاية التحفّز، انتهز فرصة تلعثمه وصرخ في هياج بدا هستيريًا وغير مبرر:
- وأيضًا تبرطم في بيتي! لا حُرمة عندك لخال ولا لبيته. اخرج من بيتي يا قليل الأدب.
تقهقر أشرف ناحية الباب وهو يتمتم:
- لكن يا خالي.
- لست خالك ولا أعرفك منذ الليلة. إيّاك أن تتواصل مع ابنتي بعد الآن.
اقتحمت الأسرة الغرفة على الرجل وضيفه. اندفعت زوجته إليه تهدّئ ثائرته، وأخذ حامد يدفع أشرف نحو باب الشَّقَّة دفعًا وهو يهتف:
- اخرج الآن يا أشرف. اخرج الآن.
هُرعت حنان إلى غرفتها وألقت بنفسها فوق فراشها وغرقت في نوبة بكاء يائس.

وجد شعبان نفسه وقودًا في حرب لم يشارك في شنّها، وجزءًا من صراع لم يُردْه، ولم يخطرْ له على بال! فهو ليس عضوًا في جماعة إسلامية ولا غير إسلامية، ولا منظَّمًا في أي تنظيم حزبي أو سياسي أو فكري على الإطلاق. فما هو إلا ابن بيئته الطيّبة التي تربّى فيها.

في الجامعة يستعر الصراع وترتفع حدّة خطاب الجماعة الإسلامية. وتُرفع شعارات وأفكار تكاد تصنع عُزلة كاملة أو قطيعة من نوع ما مع المجتمع. والصدام بين ما هو قائم وبين ما يطرح التيار الإسلامي أنّه يجب أن يكون مروّع، لأنّه قائم على منهجية الاستبدال. فالمعادلة صفرية لا مجال فيها للتعايش. ولا مكان فيها للمحايدين من أمثال شعبان!! قال له زميل دفعته وهو كذلك عضو بالجماعة الإسلامية:

- لا يمكنك أن تكون محايدًا بين الحقّ والباطل. فإما أن تكون مع الحقّ أو أن تكون مع الباطل. فاختر لنفسك يا فتى.

- أنا مع الحقّ دائمًا يا صديقي العزيز. وأسأل الله تعالى أن يثبّتني على ما أنا عليه من الحقّ، ولا يصرفني إلى الباطل.

- إذن يجب عليك أن تكون معنا فنحن الحقّ، وهم الباطل.

أجاب معترضًا:

- ما بينكم وبينهم صراع فكري وأحيانًا صراع سياسي. وما أراه في الجامعة هو صراع على إدارة وتوجيه الطلاب من خلال الاتحادات الطلابية. وليس هذا صراع على العقيدة أو صراع على الحلال والحرام!!

قال صديقه في دهشة:

- ألا ترى؟ إنّهم يدعون الطلاب إلى مظاهر الفجور من رقص وحُريّات غير منضبطة بحلال وحرام. هم يدعون علنًا إلى ممارسة الحرام، ونحن ندعو إلى البديل الإسلامي.

- يا أخي يكفيني لأن أظل على الحقّ أنّي لا أستجيب لدعوة إلى مُحرَّم، فإن دعوا إلى انحطاط أو فجور لم أستجب له. فلا أنا سأراقص الفتيات، ولا أنا سأختلي بواحدة لا تحلّ لي، ولا أنا سأترك صلاتي وعباداتي استجابة لأحد. أليس هذا هو الالتزامُ بالحقِّ يا صاحبي؟!

- لا. اسمح لي أن أقول لك إنّ هذه سلبية. ليس كافيًا أن تمتنع عن الباطل في نفسك، ولكن كلنا مأمورون شرعًا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكونك تسكت عن منكر تراه مع أنّه في مقدورك أن تتعاون معنا على تغييره. فهذا تقاعس عن نصرة الحقّ، وتكريس للباطل.
- الموضوع أكبر من أن نناقشه هنا أو نحسمه بمعلوماتنا الدينية البسيطة. لكن ما أودّ أن تعرفه جيّدًا أنّني إنسان مسلم ملتزم ولست ولن أكون جزءًا من مشروع سياسي ما.
سأله صديقه في دهشة:
- ومن أتى على ذكر السياسة الآن يا رفيقي؟! نحن نتحدَّث في أمر الدعوة.
- أنا مؤمن بأنّ دعوتي لمكارم ديني تتمثّل في التزامي الخُلقي، وتفوّقي الدراسي الذي يُجبر الجميع على احترامي، واحترام قيمي ومبادئي.

*****

21

حان موعد أذان الظهر. نهض أحد أفراد مجموعة الستة أفراد الذين لحقوا بالمحتجزين ولم يُلقَ القبض عليهم معهم، ورَفع الأذان، ثمّ نهض باقي أفراد المجموعة إلى دورتي المياه، وبدأوا في الوضوء، وتبعهم عدد من المحتجزين، وسرعان ما اصطفت الصفوف للصلاة. تضاعف عدد المصلين هذه المرّة عن الذين صلّوا الصبح مع صالح والفتيان الأربعة معه. لعل الاطمئنان بدأ يفرد جناحيه على المحتجزين رويدًا، رويدًا.
عقب الصلاة بدأ الإمام يلقي كلمة قصيرة، ثمّ طلب من الجالسين في صفوف الصلاة تعريف أنفسهم لبعضهم البعض، وأخذ كلّ منهم يذكر اسمه ومهنته وعنوان السكن، فلما انتهوا من التعارف، تنحنح صالح وطلب الكلمة في شيء من تردّد، ثمّ انطلق شيئًا فشيئًا، كأنّه كان يستعيد

صوته القوي المؤثّر من زمن بعيد ماضٍ، كانت لنبرة صوته بحة مميّزة مريحة للسامعين، أخذ يتحدَّث حديثًا مؤثّرًا مملوءًا بالشجن عن الابتلاء، وأنّ هذا الابتلاء الذي يبتلي الله به عباده كنوع من الامتحان والاختبار لإيمانهم، وصبرهم وتوكّلهم عليه. ثمّ أخذ يستعرض حلقات الابتلاء في حياة الأنبياء والصالحين. كان حديثه يأخذ بالألباب والعقول، وسرى في النفوس القلقة الخائفة كبلسم لجراحها. وعندما انتهى من حديثه بالدعاء بتفريج الكرب وتنفيث الهمّ. سمع كلمات الثناء عليه وعلى علمه، والدعاء له بالخير. ومنذ تلك الكلمة الوعظية، أصبح حديث الحاج صالح مطلب جميع المحتجزين، يطلبونه منه، فوعدهم أن يلقي عليهم حديثًا متسلسلا عقب صلاتي الظهر والمغرب. أخذوا يستزيدونه، لكنّه قال:

- نكتفي بمرتين يوميًّا حتى لا تملُّوا.

كان حديث الحاج صالح عقب تلك الصلوات ينطلق من الذاكرة وعفو الخاطر، فلقد أدرك بعد عدّة محاولات أنّهم لا يسمحون بدخول الكتب ولا المصاحف، ولا حتى الأقلام. لقد كانوا يستطيعون شراء السجائر والشاي وأنواع من البسكويت والعصائر من الكانتين، ويُسمح لهم بشراء الساندوتشات يأتون لهم بها من خارج المعسكر. ويُحضرون لهم الأدوية الضرورية، يأتي جندي يعمل كمندوب للكانتين فيجمع طلبات المحتجزين ويسجّلها على ورقة معه، عادة ما تكون خلفية علبة سجائر ممزّقة، ويحصل منهم على النقود مع رسم خدمة يقدِّره بمعرفته. وعندما كثرت طلبات المحتجزين واطمئنّ لهم مندوب الكانتين، أصبح يعطيهم الورقة والقلم ليسجّلوا طلباتهم، ويظل واقفًا بالباب منتظرًا أن يأخذ منهم ورقة الطلبات، وكان حريصًا حرصًا مشدّدًا على استعادة القلم بحيث لا يستمر في حوزتهم أكثر من خمس دقائق، ولقد أفهمهم سلوكه أنّ وصول قلم إليهم من سابع الممنوعات!!

22

يوطِّد القَنِّي علاقاته بفتيان الأمن في الفرع الذي يعمل به عن طريق مساعداته الدائمة لهم، ففي نظراته نظام كاميرات متطور يلحظ ما تسجّله كاميرات النظام الأمني بدقّة. فالكاميرات ترصد كل شيء، لكنّ فتيان الأمن أنفسهم يغفلون أحيانًا عن متابعة ما ترصده الكاميرات، هنا يأتي دور القَنِّي الذي ينقضّ على اللص كصقر يهبط على فريسة ثمينة، ويطلب من فتى الأمن مراجعة اللقطات الأخيرة.

يحصل فتيان الأمن على مكافآت متوالية تقديرًا ليقظة مُتخيَّلة لدى الإدارة عنهم، يقتسمونها مع القَنِّي الذي يتمنَّع! فما يطمع فيه من فتيان الأمن أكبر بكثير من اقتسام أجر يوم أو يومين مكافأة يقظة متوهّمة!!

العمل في فرع المول ممتع إلى أقصى حدّ، لكنّ الراتب الذي يجنيه القَنِّي منه لا يكفي الإنفاق على مزاجه المتضخِّم يومًا بعد يوم، وهو يريد أن يبني شيئًا يقولون عنه مستقبله الغامض. يقولون إنّ العمل سائقًا على سيارة أجرة داخل المدينة سيدرّ عليه دخلا مضاعفًا.

حتى عمل التاكسي لا يقلّ في متعته وإثارته عند القَنِّي من عمله في المول. يبدو أنّ الإثارة مرتبطة بشخص القَنِّي لا مهنته!

يحلو للقَنِّي قيادة التاكسي في الساعات المتأخّرة من الليل، ويجد نفسه مرتبطًا أكثر بأطراف المدينة والأماكن النائية شديدة الظُلمة. في هذه الأوقات تحديدًا لا يفضِّل القَنِّي القيادة في زحام وَسَط البلد، لأنّه غالبًا ما يكون مخمورًا أو مخدَّرًا، أو مخمورًا ومخدَّرًا، فهو يقود سيارته بعيدًا عن الضوضاء والأضواء.

تتكرَّر المحاولات، ولا يكلّ أشرف ولا يملّ من إرسال الوساطات والشفعاء إلى خاله الذي اتّخذ مما حدث في بيته ذريعة متعلّلا بإساءة أشرف الأدب معه. وأشرف يُقسم للجميع على أنّه لم يُسئ أدبًا ولم يخرج عن حدود اللياقة في حديثه مع خاله. لكنّ الرجل يصرّ إصرارًا أقنع أشرف نفسه أنّه ربما أساء أدبه مع خاله دون أن يدري أو يتذكَّر! وحنان لا تكفّ عن البكاء وجسدها لا يكفّ عن الهزال. وأُمها لم تملّ من الحديث معها عن أهمية التكافؤ العلمي والثقافي كشرط من شروط الزواج الناجح. وحنان تجيب دائمًا بنفس العبارات:

- أشرف لا يقلّ ثقافة عني يا أُمي إن لم يكن يزيد. ليست العبرة بالشهادات.

لتردّ الأُم متصعّبة بعدما تمصمص شفتيها مثنى وثلاث:

- وبمَ العبرة إذن يا حكيمة العصر والأوان؟!

- العبرة بالعقل يا أُمي. وأشرف شابّ عاقل ومتّزن ومثقّف وناجح في عمله.

- أعرف أنّ أُمه السحَّارة قد سحرت لكِ منذ مات زوجها لتأخذك لابنها وتسيطر على مال أبيك!!

- هذا على فكرة كلام قديم جدًّا يا أُمي. لم يعد أحد يتحدَّث عن السحر والأعمال إلا الأُمهات في الأفلام الأبيض والأسود.

- أفلام أو لا أفلام، تلك هي الحقيقة. والسحر مذكور في القرآن.

- يا أُمي حضرتك تعرفين أن عمتي سيدة فاضلة وليست من أهل هذه الأفعال الخبيثة.

- لا تقولي عمتي. لم تعد عمتك. لا تثيري جنوني.

- أعطني سببًا مقنعًا واحدًا لرفضكم لأشرف، وأنا مستعدّة لطاعتكم.

- ليس من مقامكِ وكفى.

ستنتهي كل محادثة بين حنان وأُمها إلى غير جدوى، ولن تزيد الأُم إلا عنادًا، ولا تزيد الابنة إلا إصرارًا وتمسّكًا بأشرف الذي لم يُجرِم في حقّ أهلها ليعاملوه هذه المعاملة. لقد تطوَّر الأمر إلى شجار متكرّر يفتعله

شقيقها حامد معه. ووصل إلى أن هدّده حامد أن يطعنه بسكين إذا رآه يقترب من المنزل أو يتحدَّث مع حنان!

*****

24

ينتهي الحِوار بدخول الأستاذ إلى المحاضرة، لكنّ محاولات أعضاء الجماعة الإسلامية لم تتوقف أو تنقطع، ويظل شعبان على اقتناعه لا يتزحزح. إنّه يناقش أستاذه محمد سعيد المسؤول السابق في المقرءة، الذي يؤمن بأنّ ما لا يتحقّق الواجب إلا به فهو واجب، وعلى ذلك فإنّ الوسائل تأخذ حُكم الوجوب كالغايات. شعبان لا يقتنع بمثل تلك المبرّرات، فالغايات تظل لديه مختلفة عن الوسائل، تلك هي المرونة التي تعلّمها من دراسة الميكانيكا في كُلْيَة الهندسة. الوسائل غير ثابتة وغير مقدّسة!!

قال الأستاذ محمد سعيد وقد صار الآن محاميًا: هل عندك شكّ في أنّ الصلاة فرض وركن من أركان الإسلام؟

- بكل تأكيد. وبلا نقاش.

- ومع ذلك لا تصحّ الصلاة دون الوضوء. والوضوء أصلا ليس من أركان الإسلام الخمسة. ومع ذلك أصبح حُكمه من حُكم الصلاة. فإذا كانت الصلاة غاية والوضوء وسيلة. فهنا أخذت الوسيلة درجة الغاية في الوجوب. وهو معنى قولهم ما لا يصح الواجب إلا به فهو واجب.

فكّر شعبان هُنيهة ثمّ قال:

- انظر يا أستاذ محمد. الوضوء أصلا ركن من أركان الصلاة وهو مفروض كالصلاة بالقرآن الكريم. فهو غاية وليس وسيلة. أما الوسيلة إلى إقامة الصلاة مثل جدران المسجد. حيث إنّ وجود البناء المخصّص للمسجد وسيلة لإتمام الصلاة على أكمل وجه. ولكن إن لم يوجد المسجد، أي انعدمت الوسيلة لأيّ سبب يمكنك إقامة الصلاة في أيّ مكان. فقد جُعلت الأرض مسجدًا وطهورًا. وكذلك ميكروفون المسجد

وسيلة لإيصال صوت المؤذّن إلى أكبر عدد من الناس. فإن تعطَّل الميكرفون بقي الأذان!
تفاجأ الأستاذ محمد سعيد المحامي من منطق تلميذه شعبان، فسأله بعد تفكير:
- وإذن ماذا تريد أن تقول من هذه الأمثلة؟
- أردت أن أقول إنّ الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة واجب. لكن الحزب أو الجماعة وسيلة متغيّرة من زمن إلى زمن، ومن مكان إلى مكان. فلا هي واجبة ولا هي شرط لتحقيق الواجب.
- لو انفرطت الجماعة لانفرط عقد الأمة!
- الأمة تظل قائمة بمجتمعها القوي الكبير، وممارساتها كإقامة صلاة الجُمعة، وإقامة صلوات الجماعة، وصيام شهر رمضان موحّدًا بين مليار مسلم. وأداء فريضة الحج التي تجمع سفراء الأمة من كل بقاع الأرض!!
لا يريد الأستاذ محمد سعيد المحامي أن يعترف بالهزيمة، فيمرِّر حالة التوهّج الذهني لدى تلميذه بالصمت المؤقّت، لكنّه بينه وبين نفسه يزداد احترامًا له وإعجابًا بمنطقه.
ربما لن يعرف شعبان أنّ هذا الحِوار العابر سيكون أحد أهمّ أسباب ترك الأستاذ محمد سعيد المحامي للتنظيم!

*****

25

في الليالي الطويلة يحاول إيهاب تمضية الوقت بالحديث مع أيٍّ من المرافقين له. وكثيرًا ما يتطوَّر الحديث إلى نقاش ويتطوَّر النقاش إلى جدال طويل. هذه الليلة جاء الدور على إسلام الشحات ليكون أنيسه المحاور. وبعد حديث طويل ترتفع خلاله حدّة الصوت تارة وتنخفض تارة. فلم يكن إسلام بالخصم السهل في أيّ نقاش أو جدال. ومن الواضح أنّه لم يسلِّم لإيهاب بصحة فرضياته مما أرهق الشاب معه. ولذا قد سمع الساهرون جميعًا في عنبر المخفَى صوت إيهاب وهو يسأل لأول مرّة

بانفعال على غير عادته في الجدال، فلقد اعتاد أن يكون هادئًا حدّ البرود مما يُصدِّر حالة التوتّر والانفعال إلى المحاور:

- ومن قال إنّ ارتداء المرأة للحجاب فرض؟

أجابه إسلام بفروغ صبر، فلقد كان أقصى ما يزعجه هو مناقشة البديهيات:

- القرآن الكريم.

هتف إيهاب:

- هات لي آية واحدة من القرآن تذكر مواصفات الحجاب على الطريقة التي تلبسه بها المسلمات اليوم.

لفت الحديث انتباه الجميع، وسرعان ما انضمّ إلى دائرة الجدال محاورون آخرون. وأجاب إسلام بثقة:

- حديث سيدنا الرسول عندما قال للسيدة أسماء بنت أبي بكر إنّ المرأة إذا بلغت الحيض لا يصحّ أن يظهر منها إلا هذا وهذا وأشار إلى كفّه ووجهه.

وهنا صرخ إيهاب:

- أنا لا أثق في حُجية الأحاديث النبوية.

وعلت الأصوات تردّ عليه، لكنّه تشبّث بموقفه قائلا:

- إذا كانت كل الأحاديث في البخاري ومسلم صحيحة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. فما قولكم في حديث إرضاع الكبير؟

تكهرب الجو ونكص المجادلون على أعقاب أفكارهم، يفتِّشون عن الردود الدامغة، وباغتهم إيهاب بسؤال وقح:

- هل يرضى أي رجل متزوّج منكم أن أمتص حلمة ثدي زوجته بذريعة أنّها تريد أن ترضعني إرضاع كبير لأُصبح محرَّمًا عليها؟

قال إسلام باشمئزاز:

- لكنّ هذا الحديث له قصة خاصة وهو غير عام لعموم المسلمين. هو حالة خاصّة بإحدى الصحابيات، ولظروف خاصّة جدًّا.

أجابه إيهاب وهو ينظر إليه ويدير نظراته في وجوه المتحلِّقين حوله، كانت نظراته نظرات ظَفَرْ:

- وهذه مصيبة أكبر. أنتم هكذا تتّهمون الصحابيات في شرفهنّ!

لم يكن المحتجزون يدركون حتى ذلك الوقت أنّهم مختفون قسريًّا. وإن لم يستطيعوا توصيف وضعهم القانوني في محبسهم هذا. كانوا يسمعون من السادة الأمناء أنّهم مسجونون سياسيون! وكان هذا أغرب وصف ممكن أن يُطلق على هذه المجموعة من المحتجزين. كان الوضع غريبًا حتى على السادة الأمناء والجنود والحرّاس، فلقد اعتادوا الإشراف على عنابر السياسيين، وعنابر الجنائيين، ويستطيعون التمييز بين الصنفين بسهولة تامّة، كان السياسيون أنفسهم ينقسمون إلى عدّة أنواع، فأغلبهم من الإخوان أو من المتعاطفين معهم، وبعضهم كانوا من اليساريين أو من شباب الثورة، أغلبهم كان يُحبس على خلفية قضايا تظاهر سياسية، مثل قضية تيران وصنافير.. وبعضهم يُحبس لانضمامه لجماعة محظورة قانونًا. لكنّ المحبوسين السياسيين عمومًا كانوا يتشابهون في كونهم خريجي جامعات موظّفين ورجال أعمال، أو منتظرين للعمل. كلهم على درجة كبيرة من الثقافة بمختلف توجّهاتها. وكلهم يتميزون بالاحترام والأخلاق الطيّبة، وجميعهم يهتمّون بالشأن العام. أما السكان الجدد لهذا العنبر فكانوا خليطًا عجيبًا يجمع بين طلاب الجامعة وكانوا ثلاثة أو أربعة أفراد، ثمّ عدد قليل من الموظّفين وأصحاب الأعمال من أصحاب الشهادات العليا. والأغلبية كانت من أصحاب المهن اليدوية المختلفة بعضهم متوسّط التعليم، وبعضهم لم يحصل على قسط وافر من التعليم. وكانوا جميعًا من أولاد البلد الحقيقيين، يصخبون ويسبّون والأغلبية منهم يدخّنون بشراهة. لم يكن السكان الجدد للعنبر رَقَم واحد على أي درجة من درجات التجانس. ولم يكن أغلبهم لديه أدنى اهتمام بقضايا الشأن العام، ولم تكن تلك هي المعلومات التي أدلوا بها أمام المحقّقين فحسب. لكنّها كانت حقيقة واضحة من خلال التعامل اليومي للأمناء ذوي الحنكة والفراسة. وكانت تقوم بين بعضهم البعض المشاجرات العنيفة على أماكن النوم، أو على توزيع الطعام. مشاجرات يُسمع فيها تبادل الشتائم بأقذع الألفاظ، وسبّ الدين والملّة. الأمر الذي لم يشهد حرَّاس السجن مثله من قبل مع أي من سُكان عنابر السياسيين الذين مرُّوا عليهم!!

عدم التجانس الظاهر على سكان عنبر رَقَم واحد كان يؤثّر على انقضاء الوقت الذي يمرّ ثقيلا بطيئًا مقيتًا. لم يكونوا يستطيعون إقامة حفلات السمر لقطع الوقت مثلما تفعل عنابر السياسيين الأخرى.. لكنّهم كانوا يسمعون على البعد من العنابر الأخرى بعض الهتافات أو الدعوات التي تنطلق تشقّ سكون الليل. حفظها الليبي وصار يردّدها بصوته القوي الجهوري، كانت تصل إلى العنابر الأخرى فيردّون عليها بالتحية، كما يردّ سكان عنبر رَقَم واحد على هتافات ودعوات العنابر الأخرى بالتأمين والصلاة على النبي.

فجأة كان ينطلق صوت الليبي مدوّيًا يقطع فراغ العنبر رَقَم واحد والعنابر المجاورة:

- فرجه قرييييب!

ليجيب سكان العنابر الأخرى:

- صلّوا على رسول الله.

بعد نحو نصف ساعة ينطلق صوت الليبي من جديد فتيًّا عفيًّا هادرًا:

- يا حنَّان يا منَّان
  يا رافع السما من غير عمدان
  أخرجنا من هذا المكان
  واحبس مكاننا اللئام
  يا بختك. يا بختك ياللي تقول يا رب

لتردّ الحناجر بوجيب القلوب في العنبر رَقَم واحد والعنابر الأخرى:

- يااااا رب!

ينطلق على البعد صوت الحرّاس كأنّهم يستجيبون لهتافات سكان العنابر:

- اصحى صحصح حدّيك تمام
- تمام التمام التمام التمااااام

27

بالقرب من الطريق الزراعي السريع، على مدخل المدينة وفي عتمة ليلة من ليالي شتاء قاحلة ومظلمة، تنبثق له من جوف العتمة فتاة يكاد يتبيَّنها بالكاد كأنّها جنيَّة من جنيَّات حواديت الجدّة! عباءة وطرحة سوداء خالصة متماهية مع ليل بهيم لا تُضيئه سوى مصابيح صفراء خافتة وباهتة من أعمدة كهرباء تكاد تظهر على استحياء وحشمة. تصعد الفتاة إلى المقعد الخلفي كما يقضي البروتوكول، والقَنِّي هائم في عالم يصوِّره له المخدِّر الأخير وهو ينفث دخان سيجارته بتلذّذ عاشق يُقبِّل شفتي معشوقته، ومذياع السيارة يناجي أذنيه بموال حزين خافت الصوت، كأنَّه يضنّ على الراكبة معه أن تعيش الحالة. تهمس الفتاة:

- هل يمكن أن تُغلق المذياع من فضلك؟

صوتها الموسيقي أجبر القَنِّي على الطاعة دون مشاكسة، رغم أنّه في حالته الطبيعية كان كفيلا بإلقاء الراكبة من السيارة إلى عرض الطريق. شرعت الفتاة تدندن نفس الموال الذي أغلقه للتوّ بصوت ساحر أخذ لُبّه. شعر القَنِّي بالخشوع أمام هذا الصوت الفاتن رغم سُكره البيِّن، لم يستطع أن يُطلق صيحة إعجاب، ظلَّت معلَّقة في حلقِه. شعرت الفتاة بصيحة الإعجاب دون أن تغادر صدره عبر ذبذبات شعورية خاصّة. عندما وصلت إلى عنوان نزولها همست:

- أنت شاب مهذَّب وأنا أحتاج كثيرًا إلى سيارة أجرة في تنقلاتي. هل تمانع أن أتّصل بك وتحضر لتنقلني إلى المكان الذي أريد؟

أجاب مأخوذًا في أدب:

- تحت أمرك يا هانم.
- اسمي سارة. نادني بسارة بلا ألقاب.

ابتسم ابتسامة ظَفَر صغيرة وهتف:

- معك القَنِّي يا آنسة سارة.

نظرت إليه بعتاب وهمست:

- قلنا سارة بلا ألقاب يا قَنِّي.

تبادلا أرقام المحمول، ترجَّلت من السيارة وتركته هائمًا في أحلام ما بين اليقظة والسُكر. سجَّل رقمها على المحمول باسم (سارة كروان). هكذا قرّر أن يلقِّبها في أعماقه!

في اليوم التالي اتصلت به قائلة:

- مرحبًا يا قَنِّي عندي مشوار مهمّ. أريدك أن تظل معي السهرة بالكامل. لا تقل إنّك مشغول أو مرتبط. سأصاب بصدمة!!

- عيب يا آنسة سارة، حتى لو كنت مشغولا، أنتِ أهمّ بالتأكيد. نصف ساعة على الأكثر وأكون أسفل منزلكّ.

- ليكن بعد ساعة يا قَنِّي ممكن؟ لكنّ السهرة ستكون طويلة.

- اتفقنا.

- شكرًا يا قَنِّي.

أغلق القَنِّي الخط وهو يهمس هائمًا:

- شكرا لكِ يا (برنسس)..

طلبتْ منه التوجّه إلى إحدى البلدات القريبة للمدينة، وعندما ابتلع ظلام الطريق المُقفر نسبيًا السيارة بمن فيها، خلعت سارة التي كانت تستقلّ المقعد الخلفي طرحتها فانسدل شعرها أسود فاحم ناعم جميل على كتفيها، هكذا رآه القَنِّي من خلال المرآة أمامه. كتم صافرة إعجاب كادت تصدر بغير وعي منه. ثمّ ما لبثت أن خلعت العباءة ووضعتها بعناية على ظهر المقعد! ظهر ثوب سهرة بلون أحمر داكن مطرّز بمشغولات تلمع مع انعكاسات الأضواء التي تأتيهم خجلى من بعيد. كان لون الثوب متناغمًا مع بشرتها الرائقة. عبثت بمحتويات حقيبة يدها أخرجت قنِّينة عطر أطلقت منها بضع بخَّات أسفل أذنيها وحول عنقها. ثمّ نظرت في مرآة يدها مبدية رضا صارمًا على هيئتها النهائية. القَنِّي يرقب كل هذا من مرآة القائد ويشعر بالتوتر يجتاح أعصابه مع ازدياد في سرعة دقّات قلبه وتدفقّ الدم الساخن إلى رأسه، مانعًا نفسه من التعليق فارضًا على صدره واقيًا من فولاذ! لم يمنع ذهنه الشارد من التساؤل إلى أين تأخذني جنِّية الليل هذه؟!

28

رغم كل ذلك ظل اللقاء بينهما متجدّدًا، وإن اتّخذ مسارات بعيدة عن المعهد وعن البيت لتجنّب أعين الرقابة. وهكذا كلما حوصر الحب العفيف في النور لجأ لا إراديًّا إلى سراديب الظلام تحت الأرض لتصريف اللوعة والأشواق المستعرة في قلبي الحبيبين!

قالت له في حيرة:

- لست أعرف سبب كلّ هذا العداء الذي صارت تكنّه أسرتي لك.

أجابها مهمومًا:

- لا بدّ من وضع حدّ لهذا الهُراء المريب.

سألها بغتة:

- هل ما زلتِ تكنّين لي نفس الحب القديم؟

لامته عيناها بشدّة. تساءلت في تأنيب:

- ولمَ أنا معك الآن إذن؟

- لا تلوميني يا حبيبتي. إنما أردت أن أستوثق من مشاعركِ قبل أن نخطو خطوتنا الحاسمة.

قالت بانزعاج:

- وما هي؟

- نضعهم جميعًا أمام الأمر الواقع. نتزوّج. لقد بلغتِ سنّ الرشد، أليس كذلك؟

ابتسمت ابتسامة مريرة ساخرة وغمغمت:

- عدنا لأفلام الأبيض والأسود. هذه الأفكار تمّ هرسها في الأفلام والروايات يا أشرف. وأنت عندي أكبر من هذا اللغو.

أُسقط في يده، تساءل بمرارة:

- وماذا علينا أن نفعل غير ذلك لنغيّر هذه الحال التعسة؟

- نصبر يا أشرف. نصبر.

- لقد صبرنا منذ اندلعت الحرب العالمية الثالثة بين أُمكِ وأُمي، فهل غيَّر صبرنا من الأمر شيئًا؟

سكتتْ فلما طال صمتها، قال:

- أخشى أن يجبروننا على الفراق. أو يجبرونكِ على الخِطبة لغيري.
تساءلتْ في نكد:
- هل تُراهم يفعلون؟
أجابها دون أن ينظر في عينيها:
- إنّ هذا هو مشروعهم الذي بدَّل نظرتهم ومعاملتهم لي. يريدون لكِ زوجًا مهندسًا أو طبيبًا أو... أو....
شهقتْ قبل أن تقول في رعب:
- لكنّي أريدك أنت يا أشرف يا ابن عمتي.
- إذن نتزوّج ونضعهم أمام الأمر الواقع، وتفرضين إرادتكِ على الجميع.
- لكنّهم أهلي يا أشرف، ولو علم أبي بأمر كهذا فربما حدث له مكروه.
- أبوكِ هو خالي أيضًا يا حنان، وأنا لا أقبل عليه السوء. لكنّه وأُمك قد وضعانا في هذا الاختيار المرّ. لم تعد لنا حيلة، إمّا أن نتزوّج وإلا فرّقوا بيننا. كما يقول المثل (ما الذي رماك على المُرّ؟).
غمغمت ساخطة:
– الأكثر مرارة منه.

ثمّ استطردتْ، قالتْ في اضطّراب:
- لكن اللوم في مثل هذه الحالات يقع كله على الفتاة. أنا أريدك يا أشرف لكنّني لا أريد أن أهين أسرتي أو أُعرّض سمعتهم الطيبة لألسنة الناس. أو أن أخسرهم للأبد.
- ولا أنا أحب أن أخسرهم يا حبيبتي. لكنّهم يقولون (آخر الدواء الكي. ولا بُدّ مما منه بُدّ).

29

لم يكن هذا الصراع، الذي يدور في الجامعة بين الجبهات الثلاث للتنافس في الغالب على أغلبية طلابية غير مبالية من حيث الأساس لما يدور حولها، وحده هو سبب اتّخاذ شعبان قراره بوضع مسافة ما بينه وبين مجتمع المقرءة. ذلك أنّه تحفَّظ كثيرًا على إضافة وصف إسلامي على كل نشاط من أنشطة الحياة، فهذا بنك واقتصاد إسلامي، وذلك زواج إسلامي، وتلك فكرة إسلامية، وذاك أدب إسلامي، وهذا فنّ إسلامي، وتلك بدائل إسلامية. في تقديره أن تُسمّى الأشياء بأسمائها الصحيحة، الإسلام ذاته أطلق مصطلح "الحلال" على كل ما هو طيّب مباح!! وشعبان كذلك يتحفَّظ على إضافة مصطلح الإسلام لكل من ينتمي لجماعات الإسلام الدعوي أو السياسي، فهذا ابن الإسلام، وتلك فتاة الإسلام، وذلك شبل الإسلام. أما هو فيعرِّف نفسه بأنّه شاب مصري مسلم، هذا هو كل شيء!!

لكنّ التباعد النسبي الحادث بينه وبين مجتمع المقرءة، لم يمنعه من الحفاظ على طُهرانيته التي تمسَّك بها طوال مسيرته في الحياة. ولم يمنعه عن أداء صلاة الفجر في المسجد جماعة. ولا منعه كذلك من أن يحب إحدى الفتيات!! فهو يرى أن الملتزمين دينيا وخُلقيا أيضًا يحبّون، بل إنّهم إذا أحبوا كانوا أكثر إخلاصًا ووفاءً لمن يحبّون، لأنّهم ينطلقون في عاطفتهم من معايير عقلية وقلبية في نفس الوقت!

30

اختار صالح عنوان الحبّ في الإسلام موضوعًا لسلسلة كلماته التي يلقيها على المحتجزين يوميًّا بعد صلاتي الظهر والمغرب، ولقد بدأت هذه الأحاديث تأخذ صورة المحاضرات، وكان من الواضح تمكُّن الحاج صالح من المعلومات التي يقدِّمها من خلال هذه المحاضرات، ويعيش فيها بكل كيانه. انفعاله بما يقول ينتقل بسلاسة لمسامع سكان العنبر، وينسكب في صدورهم بردًا وسلامًا، حدَّثهم عن حبّ العبد لله، وحبّ الله لعباده ورحمته بهم، وعن حبّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ونماذج من حبّ الصحابة له، فبكى وأبكى السامعين حوله. ثمّ حدَّثهم عن حبّ الأهل والزوجات، فروى لهم عن قصّة قلادة السيدة خديجة التي أرسلتها ابنته زينب فداءً لزوجها أبي العاص بن الربيع، ثمّ حكى لهم تحت عنوان أروع قصص الحب في التاريخ عن عِلاقة السيدة زينب بنت النبي وزوجها أبي العاص!!

مضى الحديث جديدًا وساحرًا يلمس أوتار القلوب ويعزف على أشواق النفوس التي فارقت الأهل والأحباب إلى أجل غير معلوم. أما الحاج صالح فقلبه وعقله ونفسه قد عُجنوا فيما يقول عجنًا فأنتجوا خلطة عاطفية مبهرة!!

أما مجموعة الستة نفر المتجانسة، فكانوا من أبناء مركز من مراكز المحافظة الإقليمية، وقد جيء بهم على خلفية قضية تظاهر، ومن الواضح أنّها لم تكن المرّة الأولى التي يقبض عليهم فيها رجال الشرطة، لقد تعرّضوا جميعًا للحبس على ذمة قضايا مشابهة أكثر من مرّة ولمدد متفاوتة، ولذلك بدوا أكثر رباطة جأش وهدوءًا وتسليمًا بالأمر الواقع، ويملكون ما يمكن تسميته خبرة التعامل مع المحابس والسجون، ويتمتّعون بأدب ولباقة قضاء الأوقات داخل السجن!!

ورغم تجانسهم الفكري والثقافي الواضح، لكنهم يمتهنون مهنًا مختلفة، اثنان من المُعلمين، ومحاسب، وموظف إداري، وتاجر مواشٍ، وطالب بجامعة الأزهر!

ضياء جابر طالب جامعة الأزهر، وسيم الوجه مشرقه، حافظًا للقرآن الكريم، واسع الأمل رغم صعوبة الحياة التي يواجهها، هاجر والده هجرة

إجبارية فرارًا من ملاحقة قضايا تتعلّق بانضمامه لتنظيم الإخوان، وباعتباره أحد رموز الجماعة في مركزه ودائرته، وضياء نفسه تعرّض للحبس قرابة ثلاث سنوات محكومًا في إحدى قضايا التظاهر، كما أُعيد حبسه أكثر من مرّة على ذمّة قضايا أُخرى، وتخلّف عن دخول امتحانات الجامعة لعامين متتاليين نظرًا لظروفه، ورغم كل تلك المِحَنْ، فالابتسامة الرائقة لا تكاد تفارق وجهه الوضَّاء!

ذات مساء وعقب صلاة العشاء، انضمّ ضياء جابر إلى الحاج صالح، وبعد أن تحدَّث معه حديثًا جانبيًّا رقيقًا مثنيًا على علمه ورُقي أحاسيسه، وسحر أسلوبه، طلب منه الزواج من إحدى بناته إن كان لديه بنات في سنّ الزواج!!

*****

31

أخيرًا وجد نفسه أمام بقعة متألِّقة من الأضواء الصارخة تبتلع عتمة الليل. زحام وضجيج، تبيّن منه شادرًا من شوادر أفراح القُرى والمناطق الشعبية. أدرك القَنِّي أنّها حضرت بكل هذه الأبّهة لتقديم المجاملة في عُرس بعض معارفها.

انهارت أحلامه المرتعشة بليالي الجنيّات الخيالية انهيارًا أشعره بالأمان والامتنان، لم يكن قد أخذ (اصطباحته) بعد، ظل فائقًا يَقِظًا على غير عادته! ركن سيارته بجوار المسرح مباشرة كما أومأت إليه. ترَّجلت سارة من السيارة وانطلقت إلى المسرح في حركة استعراضية كمُهرة انسابت للتوّ فوق مضمار السباق، تحيطها صيحات الإعجاب ودويِّ تصفيق متفجِّر مصحوبًا بصرخات انبهار صاخبة، هتفت سارة في المايك الذي خطفته في حركة بهلوانية مفاجئة بمجرد أن استقرّت قدماها فوق خشبة المسرح: (سقفوله). فانفجرت البقعة المضيئة ذات الألوان المتماوجة بالتصفيق والهتاف، وصافرات التشجيع.

وبدأت وصلاتها الغنائية إلى قرب الفجر. تتناغم التواءات جسدها الرشيق مع فلاشات الأضواء وخبطات الموسيقى. تَسَلْطَنَ القَنِّي وقد لمح

دخانًا أزرق كثيفًا ينبعث من السجائر المحشوَّة في ركن مميّز من أركان الشادر، لجأ إليه منشدًا ضالته!

في طريق العودة كان الحشيش يلعب في رأسه، لسانه ثقيل والسيارة تُقاد بالدفع الذاتي تقريبًا، تمنَّى لو تدعوه للصعود معها. ودَّعته ولم تفعل، فارتاح أكثر كأنّه كان مقدِمًا على مغامرة خَطِرَة نسبة الهلاك فيها أضعاف نسبة النجاة!

تستمرّ عِلاقة العمل بينه وبين سارة كروان، تنقده مقابلا سخيًّا لكنّها لا تُغدق عليه. تعطي مقابل ما تأخذ ليس إلا. عرف حدود عمله فاستكان وهدأت هواجسه. في الليالي التي لا تستدعيه فيها سارة ينطلق بسيارته إلى حيث اعتاد قبل لقائه بها، تلعب الخمر برأسه فيُهرع إلى أطراف المدينة يلتمس الفراغ والعتمة والفرص النادرة. أصبح يعرف عن مدينته ليلا ما لا يعرفه عنها أهل النهار!

يستوقفه ثلاثة فتيان وفتاة. لا تخطئ فيها فراسته. تتأكّد هويّتها عندما يأمره أشقاهم أن يتّجه إلى بقعة منعزلة على تخوم المدينة. الطريق مقطوعة ولا يذهب هناك إلا أشقياء المطاريد. يصيح القَنِّي:

- ثلاثون جنيهًا يا (برنس).
- لماذا يا عمّ الشباب؟ نذهب دائمًا بعشرة جنيهات!
- المكان مهجور والمنطقة خَطِرة ليلا ولا مؤاخذة.

يسدِّد القَنِّي نظرات ذات معنى للفتاة، ويضيف:

- من أجل الهانم تهون النقود. أليست المحروسة شقيقتكَ على ما أظن، أليس كذلك؟

تنطلق شهقة مكتومة أقرب للشخير من الشابين اللذيْن شغلا المقعد الخلفي بجوار الفتاة، ويهتف أحدهما في استهتار:

- نعم هي أخته. وهذا خطيبها. وأنا صديقهم. تحرَّك إذن يا عمّ الشباب.
- ثلاثون جنيهًا.
- اتّفقنا. ثلاثون. ثلاثون.
- على البركة.

تمتم القَنِّي وهو ينطلق بالسيارة جهة المنطقة المهجورة، تشاغل عمَّا يحدث في السيارة، وضع سمَّاعات صغيرة بأذنيه وهام في عالمه الخاص. عندما وصلوا إلى قرب نهاية الطريق الموحش، تمتم القَنِّي بتعويذات تقيه مما يُحاذر، وقبل أن ينتهي من تمتماته انشقَّت الأرض عبر منخفض عميق على جانب الطريق عن عشرة من الأشقياء، لمعت نِصال أسلحتهم البيضاء، إثر انعكاس ضوء كشّاف السيارة عليها. تعالت الصيحات محيطة بالسيارة من كل جانب:

- انزل أنت وهو. انزل. انزل.

ترجَّل الفتيان الثلاثة على وجل يتحسّسون مواضع أقدامهم. تشبَّث القَنِّي بعجلة القيادة يتقوَّى بها، وتشبَّثت الفتاة بظهر مقعده وهو يسمع لهثان أنفاسها المرتعبة. تقدَّم شقي إلى باب السيارة بجوار القَنِّي وصاح:

- وأنت ألا تنزل؟

*****

32

افترقا على أن يُعدّ أشرف للأمر في سرية تامّة، بعدما وعدها أنّ شيئًا من علاقتهما معًا لن يتغيّر بعد الزواج، إنما يتزوّجها ليحمي حبّهما من غدر الزمان وتعنُّت الأسرة!! لم تمنحه حنان أية موافقة لا نهائية ولا حتى مبدئية على خطّته، لكنّها أيضًا لم تُشعره برفضها القاطع لفكرته وإن بدت لها فكرة مجنونة مستحيلة التنفيذ على أرض الواقع. عد أشرف ترك حنان للباب مواربًا أمام تنفيذ خطّته، خطوة جيّدة على طريق اقتناعها لاحقًا بأنّه لا بديل عن تلك الفكرة كحلّ أخير للأزمة الراهنة.

33

لقد كان لتخرُّج إسلام الشحات في معهد النظم والمعلومات من أحد المعاهد الخاصّة، دوره في عزله عن أي حركة طلابية أو حراك شبابي على غِرار حركة كفاية أو حركة ستة إبريل، أو غيرها من التيارات الشبابية أو الدينية، التي ربما تذخر بها جامعات التعليم العام، ثمّ تكفَّل عمله بمهنته في ورشة أبيه للنجارة والموبيليا في ابتعاده كذلك عن الإضرابات الفئوية التي عمَّت البلاد في العامين السابقين عن ثورة يناير، والتي شملت أعضاء وموظفي أغلب المؤسسات والهيئات الحكومية وقطاع الأعمال!!

*****

34

كلما زاد اختلاط إيهاب من أول أمس إن شاء الله، بباقي المحتجزين معه، خاصّة بالشباب في مثل سنّه تقريبًا، كلما قلّل من عرض نظرياته الفلسفية الجدلية، وهو على العموم لم يكن ينتظر أن تطول مدّة مكوثه إلى هذا الحدّ، ومع استمرار الليالي المظلمة الكئيبة التي تبدو هامدة لا تمرّ، كان ينخرط مع زملائه المحتجزين في الأنشطة، وكان أكثر نشاط يمكن أن يمارسه غير إطلاقه للمصطلحات الطريفة، مثل وصفه لكل شيء يحدث أمامه بأنّه: (شيء فاخر من الآخر).

هو المشاركة في لعبة صلّح. والحقيقة أنّ نظرة الاحترام التي كان يكنّها الليبي ورفاقه لكاريزما إيهاب، ومحاولته الحفاظ على مسافة بينه وبين الآخرين، تحوّلت بطول المخالطة والعشرة إلى شيء من الاعتياد، ما لبث أن تحوّل فجأة إلى ما يشبه الازدراء المكبوت، لعل دافع الليبي الكامن وراء هذا الازدراء يكون سببه أنّه اكتشف خديعته فيه، أو أنّه يسخر من نفسه أن أولاه هذا الاهتمام المبالغ فيه في البداية.

تحوّل هذا الازدراء المكبوت إلى ما يشبه التواطؤ على إهانته، وكان هذا التواطؤ يتمّ عن طريق لعبة صلّح!

ما إن يقع إيهاب في اللعبة ليصبح هو الذي يتلقّى الصفعات، وقد أولى اللاعبين ظهره كما تقضي أصول اللعبة، حتى يتواطأ اللاعبون على أن يُكيلوا الصفعات لإيهاب بقوّة مفرطة، ويتعمّد بعضهم أن تفلت الصفعة كفّه لتنال قفاه. وربما يُكيلون له عدّة ضربات في وقت واحد، ولذلك لا يعرف من الضارب. كل هذه الإجراءات كانت خروجًا عن قواعد اللعبة وافتئاتًا عليها. يصرخ إيهاب:

- لن ألعب. أنتم تتعمّدون إيذائي.

وسرعان ما تتمّ ترضيته فيعود للعب طلبًا لقتل الوقت الذي لا ينقضي ولا يموت.

مع مرور الأيام بدا واضحًا أن إيهاب ينتظر شيئًا لا يأتي، وعدًا لا يتحقّق. إنّ استمرار الوضع على ما هو عليه لم يكن الأمر الذي تصوّره إيهاب ولو في أشدّ كوابيسه إخافة. وفجأة شحب وجه هذا الفتى الباسم الهازئ الوسيم، لقد فقد نضارته، وفقد معها كل سخريته، كما فقد بطبيعة الظروف والنوم المتكرّر على أرضية العنبر نظافته وأناقته، ثمّ بدأ يفقد أعصابه. حتى صار أوّل المنهارين الذين أصابهم هياج عصبي. بكى ثمّ صرخ، ثمّ أخذ يضرب بكلتا يديه على الباب الحديدي المصمت. حاول المحتجزون تهدئته، كما حاول الشرقاوي نهره، لكنّه استمر في التمرّد. حتى استجاب حضرة الأمين وأخرجه من العنبر، وغاب معه نحو ساعتين، توقَّع المحتجزون أنّه ينال خلالهما أشدّ أنواع التنكيل. لكنّه عندما عاد كان هادئًا وصامتًا، ولعله لم يتحدّث مع أحد من المحتجزين بعد ذلك أبدًا!!

كل ما يستوثق منه المحتجزون أنّه لم يواجه اعتداءً بدنيًّا، فلم يظهر على جسده ما يدلّ على أنّه تعرَّض لضرب أو اعتداء.

35

زيَّنت الابتسامة وجه الحاج صالح، ومدّ كفّه أمسك بها كفّ ضياء جابر في رقّة، وقال له في عذوبة:

- في الحقيقة يا ضياء يا ابني أنت شاب ذو خلق متين وصبر عجيب، وهي صفات يتمنى أيّ أب أن يحظى بها في زوج ابنته الذي سيصبح في مثابة ابنه.

- جزاك الله خيرًا يا حاج صالح على هذه الثقة. أسأل الله أن أكون أهلا لها.

أكمل الحاج صالح:

- لكن للأسف يا بني إنّ ابنتاي أكبر سنًّا كثيرًا منك. وهذا يجعل فكرة الارتباط لا تقوم على أساس من التكافؤ المقبول.

ابتلع ضياء خيبة الأمل وداراها بابتسامة عذبة، وقال:

- من حبي لحضرتك أردت أن أتشرّف بمصاهرتك.

ربت صالح على كتفه وسأل متبسِّطًا:

- وهل ترغب يا ولدي أن أكون في مقام أبيك، ردّه الله إليك مردّا كريمًا؟

- الشرف لي يا حاج.

- إلى متى تظل هكذا تعيش في محنة وابتلاء تخرج من سجن لتدخل حبسًا؟!

- حضرتك تعرف يا مولانا أكثر من أيّ أحد هنا، أنّ الابتلاء سُنَّة الله في الدعوات والرسالات. إنّ أول درس ألقيته علينا كان عن سُنّة الابتلاء.

باغته صالح متخابثًا:

- وهل تطارد الحكومات مؤسّسة الأزهر الشريف؟!

- لا يا حاج صالح، ولكنّها تتعقَّب دعوة الإخوان المسلمين.

احتجّ صالح قائلا:

- لا يا ولدي، الإخوان المسلمين تنظيم سياسي ربما ينطلق من رؤية دينية. لكنّ الخلط بينه وبين الرسالات والدعوات ظلم للتاريخ

والمنطق. والواقع والتاريخ يؤكّد أنّ مؤسسة الأزهر هي إحدى أكبر المؤسّسات في العالم الحاملة لرسالة الإسلام. أليس كذلك؟

- لكن يا حاج، الأزهر لا يتصدى للظلم والظالمين...

قاطعه صالح:

- ومع ذلك فإنّ والدك وهو من رموز الإخوان رأى أن يلحقك بتلك المؤسّسة؟!

- هو فعل ذلك حتى أُتمّ حفظ القرآن الكريم.

- نعم. نعم. حتى تحفظ القرآن الكريم وهذه ميزة رائعة تُحسب لمصلحة الأزهر. كما يؤكّد إصرار والدك وهو إخواني على إلحاقك بالأزهر الشريف. أنّه يأتَمِن تلك المؤسّسة على عقيدتك وفقهك للإسلام.

- أنا لا أُنكر ذلك يا حاج. لكن تظل للإخوان ميزة لا يوفّرها الأزهر، وهي محاضن التربية العملية من أُسر، وكتائب ومخيمات ورحلات. مجتمع عملي كامل.

سأله صالح وهو يبتسم في وجهه:

- ومن أين يستمدّ هذا المجتمع عقيدته وفكره وثقافته؟

- من العلماء والفقهاء والمشايخ؟

- وما هي المؤسّسة التي يتخرَّج بها العلماء والفقهاء والمشايخ يا ولدي؟

أجاب ضياء جابر في تسليم:

- مؤسّسة الأزهر.

ابتسم صالح ابتسامة الظَفَر، وقرّر:

- عدنا إلى نفس النتيجة. إنّ الذي يحمل رسالة الإسلام ودعوته هو الأزهر الشريف ومثيلاته من المؤسّسات كالزيتونة والقرويين وغيرهما.

- لكن حضرتك لست أزهريًا يا حاج صالح ومع ذلك...

قاطعه صالح من جديد:

- كلنا عيال على الأزهر.

لم يسلِّم ضياء جابر بأفكار صالح تسليمًا كاملا كما يسلِّم له عقله وقلبه عندما يستمع منه عن الحب. لكنّه لم يستطع مجاراته في منطقه فصمت.
بعد لحظة عاد صالح يسأل في تأمّل:
- ألم تفكّر يا ضياء أن تترك الإخوان وتعلن ذلك وتتفرغ للأزهر، وتحافظ على دينك وثقافتك وأخلاقك في نفس الوقت؟
أجابه ضياء جابر بعفوية:
- أنا لم أنضمّ للإخوان يا عمي. أنا وُلدت في الإخوان، كما يقولون عن فلان إنّه وُلد مسلمًا. أنا هكذا وُلدت إخوانيًا لأسرة إخوانية الأب والأم في عائلة هواها إخواني.
- أنت إخواني إذن بالوراثة؟!
- إخواني بالوراثة والمولد والنشأة والتربية وكل شيء في الحياة.

*****

36

أشار زعيم الأشقياء -وكان يعرف القَنِّي على وجه الشبه- بكفّه، وهتف:
- اتركه يا سامبو. القَنِّي حبيبنا وسيترك لنا البنت ويذهب ولا خطر منه. ألست أنت القَنِّي؟
رُدّت الروح إلى جسد القَنِّي واستعاد رباطة جأشه ورسم ابتسامة واثقة. تشبَّثت الفتاة بظهر مِقعده بدرجة أكبر وانخرطت في بكاء صامت. القَنِّي يشعر بوجلها، لكنّه قال بقسوة من يتخلّص من مسؤولية لا يطيقها:
- ألن تنزلي؟
ازداد نحيب الفتاة، صاح:
- ألم تسمعي ما قالوا؟!
لم تجبه سوى شهقات متسارعة. تمالك أعصابه وقال بهدوء:

- ألم تأتي أساسًا من أجل هذا العمل؟ إنّه عملكِ أليس كذلك؟ ما الفرق بين أن تقدِّمي عملكِ لهؤلاء الأوباش أو للأوغاد الآخرين. ليس ثمّة فرق أليس كذلك؟

تحوّل بكاؤها الخافت إلى أنين يقطع نياط قلبه -إن كان لقلبه نياط-!

قال برقّة مفاجئة:

- أخبريني بالله عليكِ ما الفرق بين هؤلاء الفتيان وبين أصحابك الثلاثة؟ هل تريدين إقناعي بأنّ ما بينكِ وبين الثلاثة حالة حب؟ استلطاف؟ انسجام؟ أنتِ مثلي أو مثل هذه السيارة. من يدفع الأجر يركب، ولا عِلاقة لنا به بعد ذلك.

خوفها كان أشدّ حتى من ألمها بسبب تعبيراته الصريحة الجارحة، أدركت ضرورة أن تشرح له لعله يتعاطف معها، قالت وهي تلهث:

- هؤلاء نحو عشرة شباب وسيقتلونني..
- بل سيأخذون متعتهم ويتركونكِ تمضين وشأنكِ.
- أنت لا تفهم، إنّهم عشرة ولو أعطيتهم ما يريدون سأموت حتمًا. إنّهم وحوش. في عرضك احمني. أليس لك أخوات بنات؟

صدمه السؤال كدُشّ بارد يوشك أن يُفيقه من سُكره. تمتم محاولا ألا يكون فظًا:

- يا بنت الناس هذا هو عملكِ. أنا لا أستطيع أن أمنعكِ من أداء وظيفتكِ.

تشبَّثت به بشكل مريع، وهي تصرخ:

- لن أستطيع.
- يا بنت الناس إنّهم عشرة وحوش. وسيُنزلونكِ من السيارة عنوة ويحطّمونها فوقنا. صبرهم كاد ينفد.
- أستحلفك بأمك. بعينيك. بأغلى ما عندك. لا تتركني لهم.

أفاق القَنِّي تقريبًا من سكرته على ورطته. نظر إليها بشفقة وترجّل في مواجهة كبيرهم، وهمس في محاولة لإيجاد صوته:

- يا عم الشباب أنت رجل كلك واجب وفعلت معي معروفًا منذ دقائق. أكمل جميلك ودع الفتاة تعود معي. إنّها مرتعبة ولا تريد. أشعر

أنّها صارت باردة كالثلج ولن تتمتعوا منها بشيء. فاتركوها، تصبح جميلة لكم علينا.
أجابه الزعيم وهو ينظر نحو السيارة باشمئزاز:
- عن نفسي لا أريد منها شيئًا ولن أقترب منها. لكن هي حقّ الرجال وهم يريدون حقّهم.
هتف الأشقياء مؤيدين زعيمهم:
- نعم نريد حقّنا منها، ولن نتركها دون أن تؤدي لنا عملها المعتاد. إنها بغيْ وسنأخذ ما نريده منها.
عاد القَنِّي منكسر النفس إلى السيارة، وتمتم للفتاة:
- أنا حاولت لكنّهم لن يتركونكِ.
تشبَّثت الفتاة هذه المرَّة بذراعة، شعر بجسدها يتخشَّب ويرتعش بشدّة وهي تشهق وتبكي وتهمس من بين الشهقات:
- أرجوك لا تتركني لهم. أرجوك. أتوسل إليك. أرجوك.
تأثَّر القَنِّي لحال الفتاة، لم يستطع الانسحاب من معركة يوقن مسبقًا بأنّها خاسرة لا محالة. عاد لمواجهة رهط الأشقياء، صاح:
- البنت لا تريد. لا تستطيع. لن تستفيدوا منها بشيء. وأنا لن أتركها. سأدافع عنها إما قاتل وإما مقتول.
توتّر الجوّ، نحو عشرين عينًا كانت تصوّب إلى عينيه شهبًا من نيران. تشمَّمت أنف القَنِّي الاستعداد للقتال بل للقتل، لأوّل مرّة في حياته يدرك أنّ الاستعداد للقتل له رائحة يطلقها المجرم قبل إقباله على جريمته، لم يعد مفرّ، همَّ بإخراج آلته الحادّة.

37

عندما ينجح حامد في ضبطهما معًا في لقاء في أحد (الكافيهات) في المدينة المنغلقة، سيقيم الدنيا ولا يقعدها، سينهر شقيقته بعدما يهدّدها بالصفع على وجهها، آمرًا إيّاها بأن تعود إلى المنزل في الحال، وهناك سيعرف كيف يحاسبها جيّدًا أمام أبويها، وسيتسبّب في فضيحة رعناء للمكان ومن فيه، وسيصرّ على تحرير محضر لابن عمته في قسم الشرطة حتى لا يكرّر اتّصاله بأخته وتغريره بها. لن ينجح المتشفّعون في تهدئة ثائرته. يجد أشرف نفسه في غرفة الحجز في قسم الشرطة، مطلوبًا منه التوقيع على تعهّد بعدم التعرّض لحنان. إنّ لأشرف قدرة كبيرة على كبح جماح نفسه والسيطرة على أعصابه، لكنّ التطاول الذي لا يريد أن يتوقّف ولا يبدو أنه سيتوقَّف في القريب من حامد ومن أبيه الذي لحق به إلى قسم الشرطة، بالإضافة إلى شهامة ضابط شاب، برتبة ملازم أوّل، تعامل مع الموقف كله باعتبار الفتاة حنان هي شقيقته وقد ضبطها متلبّسة بالجلوس مع شاب (صايع) يريد أن يفسد أخلاقها وحياتها كلها، ويجد نفسه منحازًا بالغريزة لحامد ووالده، فيقوم بأكثر من الواجب قليلا تجاه أشرف، يهينه ويسخر منه ويهدِّده بالحبس، وإن لزم الأمر لتلفيق تهمة له مادام لم يتورّع عن إيذاء بنات الناس الطيبين!! فمثله يجب أن يكون عبرة لغيره من الشباب الضائع المتطلّع لسليلات الأسر العريقة التي تفوقه بمراحل عدّة. كل هذا الضغط المعنوي والمادي، كان كفيلا بأن يجعل أشرف ينفجر في وجه الجميع:

- حنان هي زوجتي يا فندم على سنّة الله ورسوله!!

ثمّ يقوم بإبراز عقد سليم موثّق لزواجه من حنان!

يسقط الأب مغشيًا عليه بعدما أصابه ارتفاع مفاجئ وكارثي في ضغط الدم، تلطم أُم حامد خدّيها جزعًا على الشرف المهدور من جهة، وعلى رجُلها الذي يوشك أن يضيع منها من جهة ثانية، وعلى ابنتها التي خرجت من طاعتها، بل من طاعة الأسرة كلها. ويرغي حامد ويزبد، ويهدِّد ويتوعّد. ولولا حماية الضابط الشاب للزوج المحاصَر، بعدما تغيَّر الموقف كله في نظره، لأنفذ حامد تهديده بالفتك به.

وأشرف قادر على مواجهة الاعتداء، لكنّه حريص على عدم التورّط أكثر مما كان.
تلومه أُمه بشدّة على تصرّفه الأهوج الذي أفسد كل شيء، عبثًا حاول أن يقنعها أنّ الأمر قد فسد منذ شجارها مع زوجة خاله. لن تقتنع. حتى حنان احتجبت عن الخروج من البيت ولو للذهاب إلى المعهد. هاتفها المحمول مغلق دائمًا، أغلب الظنّ أنهم صادروه منها لتعيش حبسها الانفرادي في غرفتها بلا أيّ اتّصال بالعالم الخارجي!

*****

38

الفتاة التي اختارها قلب شعبان أحبّها بكل كيانه. خاصّة أنّها قابلت عاطفته بترحيب، جعل من أمر الارتباط بها مسألة وقت. وعندما أتمّ دراسته وطُلب للتجنيد، أراد أن يخطبها قبل أن يغادر، فهذه هي الخطوة الحاسمة التي تحوّل حلمه بها في لياليه الموحشة إلى حقّ مشروع، وليس مجرد مراهقة لا مسوّغ لها.
فاتَح والديه في الأمر. يدرك أنّ رصيد ثقتهم به يسمح له بأن يخطو تلك الخطوة، فهم يعرفون عنه أنّه طوال حياته هادئ رزين ومتّزن، يعرف حقوقه وواجباته. لم يحدث بينه وبين والديه ما يعكِّر صفو علاقته المتميّزة معهما. فهما كما الجميع، يشهدان له برجاحة العقل وصواب الحكم على الأمور. ولذلك ظنّ أنّهما سيرحِّبان بقراره الخِطْبَة، كعادتهما مع كل خطوة يقدم عليها.
فوجئ شعبان هذه المرّة بالرفض القاطع الذي قابله به أبواه، كانا صارمين وحادّيْن! لم يكن معتادًا منهما هذا التعنّت وأمام خطوة مثل هذه بالنسبة إليه خطوة مفصلية في حياته. إنّه القرار الأخطر على الإطلاق فإنّه إمّا يجمعه مع حبيبته التي ظل يرسم صورة حياته معها في المستقبل، أو يحرمه من استكمال نفس هذه الحياة بالطريقة التي اختارها وحلم بها وأهَّل نفسه لها طويلا حتى آخر العمر!
كل هذا جعله يقابل عنتهما العجيب بتشنّج وعناد لأوّل مرّة في حياته! إنّ شعبان مقدم على حالة تمرّد تجاه أسرته! تأزَّم الموقف تأزّمًا تامًّا بين

طرفين لا يلينان ولا يتزحزحان عن موقفهما، ثمّ انفجر الموقف انفجارًا مدوّيًا عندما سافر إلى فترته الأولى للتجنيد دون أن يقبّل كفّ والده كما اعتاد كل صباح. ولا ودَّع أمه التي كان يودِّعها قبل أن يغادر البيت خروجًا عاديًا لن يستغرق منه سوى ساعة أو بعض ساعة. إنّ مغادرته للبيت على هذا النحو الدراماتيكي ليس إلا تتويجًا لحالة من القطيعة المدهشة استمرّت نحو أسبوع!! ظل البيت كله خلالها يتألَّم، فإنّ أصعب الخصام، خصام الأحباب، فهو حالة مرَضية كالتي تصيب البدن حينما تتنافر بعض أعضائه ويحدث تعارض في الوظائف الحيوية للجسم! حتى شقيقته الوحيدة التي أبقت على صلتها معه خلال الوضع المأزوم، وحاولتْ أن تقف على الحياد في هذا الصراع. حتى هي كانت مأزومة تتألّم لألم كل من حولها.

*****

39

عقب اندلاع ثورة يناير يفيق إسلام وشقيقه على واقع مختلف تمامًا، كان أكبر زلزال زلزل كيانه أنّ هناك نوعًا آخر من الوطنية والإيمان بالوطن يدفع مئات الآلاف من الشباب للتضحية بأرواحهم من أجل مستقبل مختلف لهذا الوطن!! وأنّ هؤلاء الشباب يصنعون حالة من الوطنية تختلف كل الاختلاف عن استحقاقات فوز المنتخب الوطني لكرة القدم!!

يوم جمعة الغضب تنسحب الشرطة أو تنكسر، يخرج أصحاب الشهامة من فتيان البلد. وفي القلب منهم الشقيقان إسلام وأحمد. اجتمع شباب لجنة حماية الحي، ووضعوا دستورًا لعملهم:

ممنوع مرور البلطجية ومسجلي الخطر.

ممنوع مرور المشتبه بهم دون التحقّق من شخصياتهم وأسباب تنقّلهم.

ممنوع دخول أي أسلحة إلى الحي.

في إحدى الليالي، تنطلق سيارة نصف نقل من التي يطلقون عليها الدبّابة تقترب من الحي محمَّلة بعدد من البلطجية يحملون أسلحة آلية يُطلقون منها الرصاص في الهواء لإرهاب المواطنين وفرض السيطرة، في

سرعة البرق تنشقّ الأرض عن إسلام واثنين من زملائه يعترضون السيارة متسلّحين قبل (الشوم) بجسارة نادرة. يُجبر تصديهم العملاق سيارة المسلَّحين على التوقّف، ويواجهون أفرادًا أكثر منهم عددًا وقوّة بكثير. يحتدم الصراع. ويتأزَّم الموقف، استماتتهم في وجه البلطجية المدجَّجين بالسلاح كادت تضطرّ هؤلاء المسلحين إلى إطلاق زخَّات رصاصهم تجاه صدورهم العارية، بعدما فشلوا في صدّ هجومهم على السيارة بالأسلحة البيضاء والهرّاوات. يتجمَّع باقي شباب لجنة حماية الحي ويحاصرون المجموعة المسلّحة ببراعة. بعد دقائق أصبح السلاح الآلي كله على الأرض، وتمّ توثيق أيدي المعتدين بالحبال. تُقبل سيارة شرطة كبيرة تريد استلام المهاجمين المسلّحين. يطلق إسلام صيحته الشهيرة:

- لن نسلِّم البلطجية ولا أسلحتهم إلا لدورية الشرطة العسكرية (الجيش)، لقد هاتفتهم وهم في الطريق.

بعد شدّ وجذب، انطلقت سيارة الشرطة المزعومة لائذة بالفرار! يسارع شباب الحي لجمع قطع السلاح وتوزيعها على أنفسهم كغنيمة، واستعدادًا لمعارك الليالي القادمة مع المجرمين والبلطجية، يهتف صوت والد إسلام الذي أطلّ في تلك اللحظة من شرفة بيته:

- اتركوا السلاح مكانه. إيّاكم والسلاح يا شباب. السلاح كله سنجمعه ونسلّمه للجيش.

يحاول إسلام بعد أن تسلّل من بين المتجمِّعين مناقشة والده في الأمر، فقطعة السلاح تفيد مع هؤلاء وما زالت الأيام حبلى بالأحداث والمفاجآت. أصرّ الأب على موقفه صائحًا:

- ثورتنا بيضاء وستظل بيضاء لا دم ولا سلاح.
- لكن.
- لا يوجد لكن يا ولدي. سنحمي بيوتنا وشرفنا بصدورنا العارية. صدرك المؤمن يا إسلام أقوى من أي سلاح.

أُسقط في يدي الفتى، ليس في وسعه مخالفة أبيه!

40

عنبر رَقَم واحد في فرق الأمن بعاصمة المحافظة الإقليمية، عبارة عن مبنى مستطيل الشكل طوله حوالي ثمانية أمتار وعمقه حوالي خمسة أمتار. يقع الباب الحديدي الصدئ المصمت في أقصى اليمين، وأمامه مباشرة تقع دورتي المياه، حيث يشغلان مساحة نحو أربعة متر ونصف، وأمامهما مساحة مماثلة تُترك فارغة حتى لا تعوق الحركة من وإلى دورتي المياه، وكذلك لتلاشي الروائح الكريهة التي يمكن أن تنبعث منها، بهذا المنطق يصبح نصيب كل فرد من المحتجزين الثلاثة والثلاثين أقل من متر في متر من المساحة. يفترشون بطاطين خشنة، يحتجز كل منهم زجاجة مياه غازية فارغة يملأها بالماء ويجعلها وسادة تحت رأسه عند النوم، ومع كل حركة من المضطجعين الثلاثة والثلاثين برؤوسهم فوق تلك القوارير البلاستيكية، يصدر صوت تكتكة مسموع. ومع سكون الليل ينطلق اللحن:

- تك. تك. تك. تك. تك

ويستمرّ الصوت منغّمًا حتى تبدأ الحركة في المعسكر نحو السابعة صباحًا، فتغطّي أصوات النشاط الخارجي على تلك الأصوات الليلية الرتيبة المستمرّة.

احتلّت مجموعة الستة المتجانسة ركن العنبر على امتداد الباب الحديد، وفي الجهة المقابلة احتلّت المجموعة الصاخبة الركن وكوّنوا مجموعة متجانسة أخرى، لكنّها كانت على النقيض تمامًا من مجموعة الستة، إنّ تجانسهم بُني على درجة صخبهم وأصواتهم المرتفعة، وقدرتهم على افتعال المشاجرات العنيفة على أتفه الأسباب!! وتوزّع باقي المحتجزين وبغير انتظام على منطقة الوَسَط بين المجموعتين. عم أحمد وهو كهل مغضّن الوجه له لحية كبيرة وخطها الشيب وهكذا شعره المشعَّث رمادي اللون، متوسّط الطول يميل جسده إلى الاعتدال، وكان يصرّ على أن يبدو غريب الأطوار، فقد ظل صامتًا تمامًا لم يحاول أن ينطق ولو بكلمة واحدة منذ دخل هذا المكان، لم يشجّع أحدًا من المحتجزين على تبادل الحديث معه، ولم يجب عن أي سؤال وُجّه إليه مهما بدا بسيطًا أو عاديًا!! وحافظ على مكانه في أوّل العنبر قبل الباب مباشرة فوق بطانيّة اقتنصها

لنفسه، نائيًا بنفسه أن يحتكّ بأيّ من المحتجزين، وعم أحمد هو الوحيد الذي لا يجتمع مع الباقين على الطعام، فعندما يضع الحارس الخبز والطعام في منتصف العنبر، ينقضّ على الطعام يأخذ لنفسه رغيفين من الخبز (المفرول) وقطعة من جبن المثلّثات، مصنوعة تقريبًا من نوع من أنواع المطاط، وقطعة من الحلاوة الطحينية خشبية القوام، ثمّ يعود إلى مكانه في هدوء، ودون أن ينبس ببنت شفة!! وإلى جواره وأمام الباب مباشرة يفترش إيهاب من أوّل أمس إن شاء الله المكان بالطول، بحيث يكون رأسه مواجهًا للجزء المتآكل من أسفل الباب الحديدي سامحًا بمرور بعض نسمات الهواء الرطب.

الوقت داخل العنبر رَقَم واحد يُحسب بمواعيد الصلاة، وليس بالساعات، فلقد تمّت مصادرة الهواتف المحمولة، والساعات اليدوية، وأحزمة الوَسَط من الجميع، وخيرًا فعل الأمن، فإنّ بقاء الأحزمة مع بعضهم من الممكن أن يتسبّب في كارثة إن استُخدمت في المشاجرات المتتالية!! ومع تلك المصادرة للمقتنيات الشخصية، انعدمت وسائل التعرّف على الوقت! هذا الوقت الذي أخذ يمرّ بطيئًا متثاقلا، الوقت أيضًا محبوس مع المحابيس، أو مقيّد كسيح الحركة. وخاصّة في الليالي الطوال المظلمة التي لا حسّ فيها ولا حركة، ولا كائنين، لا يمكن الحصول على كوب من الشاي، ولا يمكن تعويض ما نفد من رصيد السجائر للمدخِّنين، فيتعكّر مزاج ثلثي المحتجزين، أو تزداد عكارة أمزجتهم المعكّرة من الأساس!!

حاول الليبي أن يغنّي بصوته الجهوري المشروخ قطعًا لليل الحالك البطيء، فلم تسعفه ذاكرته لإكمال أكثر من مطلع أيّ أغنية مما يظنّ أنّه يحفظها، وحاول حامد الترزي أن ينقذه من ورطته وأن يصل ما انقطع من محاولات الليبي، فلم يفلح، وتقدّم عماد للمحاولة ففشل فشلا ذريعًا، وأغرى الليبي الحاضرين بميشو قائلا لهم:

- ميشو يملك صوتًا جميلا. لكنّ صوته منخفض فإذا ساد الصمت أمكن أن نسمع منه شيئًا مسليًّا.

وبُذلت محاولات مكثّفة مع ميشو لإقناعه بالغناء وتشجيعه عليه، وتمنّعه المتردّد يزيد فكرة الاستماع إليه بريقًا وبهاءً لدى المستيقظين لا يغمض

لهم جفن. كما بُذلت محاولات أكثر مع المحتجزين الذين لم يلتفتوا لما يدور حولهم وانخرطوا في حوار أو نقاش حادّ، أو حديث جانبي. ومضى الوقت في تلك المحاولات المستميتة، فلمّا عمّ السكون وتشجّع ميشو ليقول شيئًا، اكتشف أنّه لا يحفظ أيّ أغنية ليلقيها عليهم!
ثم هبط عليهم اقتراح بمنزلة الإنقاذ لحفلات السمر الليلية:
- هيا نلعب صلّح!
وكانت اللعبة الوحيدة التي يجيدها جميع المحتجزين!!

*****

41

بادره الزعيم قائلا:
- يا قَنِّي أنت رجل شهم. ولذلك سنترك لك الفتاة. على شرط أن تعود بي بالسيارة إلى داخل المدينة.
التفت إلى رفاقه وصاح:
- معذرة يا رفاق أنا ضعيف أمام الشهامة. خيرها في غيرها. سلام يا رجال.
أُسقط في أيدي الفتيان، ارتفعت همهمات احتجاجاتهم، لكنّهم ابتلعوها في حناجرهم كما يبتلع المريض الدواء المرّ، نزولا على رغبة زعيمهم، وأفسحوا الطريق على مضض للسيارة لتدور في طريق العودة.
كفكفت الفتاة دمعها بصعوبة وهي تتنفَّس الصُعداء، واستعاد القَنِّي رباطة جأشه، وبدأ يلاطف الزعيم. ناوله الزعيم لفافة بها مقدار مناسب من الحشيش وهو يسأله:
- عملت اصطباحة اليوم؟
- النقود معي غير كافية. اكتفيت بالمياه.
- هذا لك إذن يا قَنِّي.
عند أوّل جسر على أطراف المدينة طلب الزعيم الترجُّل من السيارة. انتقلت الفتاة التي تمالكت أعصابها بالكاد إلى المقعد الأمامي بجوار القَنِّي. شكرته بمنتهى الامتنان والعرفان. انحرف بالسيارة إلى طريق

فرعي مظلم عند نهاية الجسر، أخرج لفافة الحشيش واقتسمها معها. قالت مستسلمة:

- أمارس مهنتي السيّئة تلك من أجل الكيف. بسبب الحشيش بعت نفسي.

اكتفى القَنِّي بتدخين سيجارته المحشيّة في صمت وهو يتأمّل في الظلام من خلال دخانها الكثيف الأزرق. حاولت الفتاة أن تتلطّف معه. وسألته:

- ألا تريد أن تحتفظ برقم هاتفي المحمول؟!

أجاب في جفاء مفاجئ:

- لا يا بنت الناس. حدّ الله بيني وبين الشمال.

نظرتْ إليه نظرات تحمل كل دلائل الدهشة والسخرية. أضاف ربما ليزيل دهشتها:

- أنا شمال في كل شيء إلا الحريم. لم أفعل ولن أفعل. هذه جريمة يهتزّ لها عرش الرحمن. أستغفر الله العظيم.

همستْ الفتاة:

- أريد أن أشكرك بصدق.

- سأقِلّكِ إلى مسكنكِ. شكركِ لي هو دعوتكِ لي بالتوبة عن طريق الشمال.

*****

42

لم تكن حنان من نوع الفتيات التي تحرّكها العاطفة بالكامل، أو تتحكّم في كل قراراتها، بل كان يغلب على أكثر قراراتها وردود أفعالها التعقّل والحكمة، هكذا كانت طبيعتها، تحبّ أشرف ابن عمتها حبًّا جمًّا، لكنّ هذا الحبّ نفسه كان حبًّا ناضجًا لا حبًّا مراهقًا، حبّ نضج على نار هادئة وعبر سنوات طويلة من الزمن، كانت تراه أمام عينيها كل يوم تقريبًا بحكم قرابة الدم، وبحكم قرب مسكنيهما، وكذلك لتكفُّل والدها برعايته والعناية بأم أشرف شقيقته الأرملة، وتكفُّل أشرف بالعناية بها ذهابًا وعودة إلى المدرسة. فلم تكن العاطفة التي تربطها بأشرف من نوع العاطفة المتأجّجة المشبوبة التي تتلظَّى على الحرمان أو تشبّ فجأة لتحرق الصدر، وتُذهب العقل، وتُفقد الاتّزان، وتُزري بالحكمة. كانت

عاطفة هادئة رزينة لكنّها ثابتة ومستقرّة. وما كانت مثل هذه العاطفة المتّزنة العاقلة لتخرج حنان عن طورها وتجعلها تتّخذ قرارًا أهوجَ بالموافقة على اقتراح أشرف بالزواج السرّي رغمًا عن الجميع، ولوضع أهلها أمام الأمر الواقع كما يذهب أشرف. كانت تدرك أنّ تلك الفكرة ستضعها هي نفسها في مأزق يصعب الخروج منه لاحقًا، وأنّها ستكون أوّل ضحايا هذا التفكير الأهوج، وسيكون أشرف هو الضحية الثانية لفكرته الخارجة عن نطاق المألوف، وربما كان حبّهما ذاته هو الضحيّة الأهمّ لمثل هذا الاقتراح الجنوني. لكل تلك الأسباب لم تكن لتوافق على مثل هذا الإجراء في الظروف العادية، ولا حتى تحت أيّ إلحاح من حبيبها، لكنّ الذي جعلها تتصرَّف برعونة كردّ فعل هو شعورها بأنّ أسرتها تتعمَّد إهانة أشرف وتحقير شأنه في نظر نفسه قبل أيّ أحد آخر، وكانت تقع تحت الشعور الضاغط بالظلم الكبير لإنسان كل جريمته أنّه يحبّ بإخلاص ونقاء. ثمّ زاد الأمر سوءًا إصرار أُمها على ملاحقتها باقتراحات للخِطبة من شباب آخرين والإلحاح في ذلك إلحاحًا بدا معه الثبات على موقفها الرافض لكل تلك المحاولات مهدَّدًا بالتزعزع، إنّ هزيمتها في معركة مصيرها ستعني الاستسلام لخطيئتين لن يدفع ثمنهما سواها، الأولى الابتعاد عن حبّ حياتها، والثانية الارتباط بشخص لا تتوافق معه، وبالتالي تدمير أساس الأسرة التي عليها أن تشارك في بنائها، وهكذا تخسر مستقبلها كله حتى الممات. أمام هذا الضغط الهائل قرّرت راغمة الموافقة على خطّة أشرف الجنونية. أخبرته بالموافقة، فأنهى من فوره كافة إجراءات عقد الزواج خشية أن تتراجع عن موافقتها المكتئبة لاحقًا. وأنفذ وعده لها فلم يتغيَّر شيء في علاقتهما ببعضهما بعد عقد الزواج عمَّا كان قبل العقد، فكلاهما لم يكن يريد من هذا العقد غير حماية المستقبل من وحشية الظلم المتربّص بهما.

43

مضى شعبان لقضاء مدّة التدريب الأولى في عام تجنيده الإجباري، مشتّت النفس مبلبل الخاطر مهمومًا بهمّ أسرته، شاعرًا بالحنق والسخط والامتعاض وكذلك عدم الرضا عن الذات، فهذه أوّل مرة يخالف فيها أسرته بهذا الشكل الفجّ. وهو كذلك يترك حبيبته دون نظرة وداع، ولا يدري هل ستكون في انتظاره عندما يعود أم ستطير من يده. في لياليه المؤرّقة الطويلة، يسترجع كل ما قيل في الدعم النفسي في ثقافته القديمة والحديثة:

- ما كان لك ما كان ليخطئك. ولو اجتمعت الإنس والجن على أن يضرّوك بشيء لن يضرّوك إلا بما كتب الله عليك. إذا أحببت أحدًا بشدّة فاتركه فإن كان يحبّك كما تحبّه فسيأتي إليك!

يظل الضغط النفسي أقوى من كل المأثورات!! ثمّ.. من يعرف شعبان عن قرب يعرف أنّه بقدر اجتهاده الدؤوب فهو إنسان قدري جدًّا ومستسلم تمامًا لقدر الله. وها هو قدره يواتيه في أحلامه. فتاة أجمل ما فيها وجهها البريء كقطرة ماء رقراقة في صحرائه الجرداء، تطلّ عليه كل ليلة من نافذة ما! يصحو كل صباح من نومه منتشيًا للحلم الهادئ، محاولا في المرّات الأولى لرؤيته تأويله إلى أنّه سينال من يحبّها فيطمئنّ. لكنّ الوجه الذي يلحّ عليه في المنام لا يشبه وجه حبيبته بحال. لا يشبه وجه أيّ فتاة صادفها من قبل! يتكرَّر الحلم حتى يكاد يشعر أنّه أخطأ فهم رسالة الأقدار. يضطرب ورغم اضطرابه يملأ قلبه رضى خفي ينسى معه حنقه على ما كان من أبويه. فيعود إليهما في عطلته الأولى مشرق النفس حريصًا على الاعتذار لهما. وفي فجر أوّل يوم من أيام أجازته القصيرة يأتيه تأويل حلم الليالي الفائتة. هبط إلى المسجد الصغير المقابل لبيته لأداء صلاة الفجر كما اعتاد دائمًا قبل سفره إلى التجنيد. يشعر بالوحشة لهذا المسجد، وتلك اللحظات الرقيقة الحانية. لحظات أهل الله، قبل أن يتنفّس الصبح بنسماته الأكثر بهاءً من أيّ وقت آخر من أوقات النهار. يرفع وجهه دون تعمّد كحركة تلقائية لتقديم الشكر لربِّ السماء. يلمح وجهها البريء يطل من نافذة بيت بجوار المسجد. تأخذه المفاجأة، يصرف نظره بسرعة، يسمع دقّات قلبه. يناديه هاجس مسيطر لا بدّ أن

يتأكد، يرفع بصره من جديد يطيل النظر هذه المرّة، نفس الوجه ونفس الشعور الذي يعتريه في حلمه. نفس المنظر ونفس الإطلالة ونفس النافذة. سيعرف فيما بعد أنّ الدكتورة فرح كانت تنتظر هبوطه من منزله بعد أذان الفجر كل يوم لأداء الصلاة. تعلّق قلبها بهذا الفتى الذي يكاد لا تفوته صلاة فجر في مسجد الحي، كانت قد اعتادت على الاستيقاظ على صوت المؤذّن، وصار ظهور هذا الفتى الحيي في تلك اللحظات الشفيفة مصدر راحتها طوال اليوم. لقد افتقدت هذه الراحة التي تسري في كيانها طوال أسابيع ثلاثة، وها هو يعود. أحبّته دون أن يدري عنها شيئًا!

*****

44

يرتبط إسلام بقصّة حبّ رقيقة حالمة مع ابنة عمه (زهرة)، ويرتبط قلب (زهرة) به، كانت الفتاة زهرة تصغر إسلام بعدّة سنوات، تمتلك وجهًا طفوليًّا بريئًا وجميلا، وعينين عسليتين واسعتين، وغمازتين ساحرتين عندما تبتسم تزيدها تألّقًا وجمالا، طباعها هادئة وديعة، غير أنّها كانت الابنة والشقيقة المدلّلة لأسرتها، فهي البنت الوحيدة بين أشقّائها الذكور الثلاثة. هذا التدليل الذي ربما يزيد عن حدّه في أحيان كثيرة، أورثها رغم وداعتها شعورًا بضرورة تلبية كافّة طلباتها دون تلكّؤ أو تأخير أو جدال، وربما أكسبها كذلك عنادًا وصلابة رأس لا تلين. فهي دائمًا أبدًا تملك الصواب المطلق، والحقيقة الدامغة. لكنّ هذه الصفات العنيدة المتصلّبة، كانت تتوارى خلف الوداعة الغالبة عليها وبراءة وجهها وصوتها العذب المعجون بحلاوة لسانها. إذ لم تجد مع أسرتها فرصًا حقيقية للمناكفة والعناد، لأنّ أفراد أسرتها جميعًا كانوا يُهرعون إلى تلبية رغباتها وقبل حتى أن يصل الأمر إلى نقاش محتمل!! لكنّها كانت تمارس بعضًا من هذا العناد والتصلّب مع زميلاتها. حتى صديقاتها المقرَّبات كنَّ ممّن عرفن عنها طباعها جيّدًا، ورضين بأن يقبلنها هكذا ويتحاشين الخلاف معها ولو في وجهات النظر، فحافظن على ودّها وصفاء نفسها تجاههنّ. أما ابن عمها إسلام فلم يكن يرى منها إلا كل جميل، هكذا تنمو العاطفة الرقيقة بين إسلام وزهرة على أعين الأسرتين

وبمباركتهما الميمونة، وفي إطارها الاجتماعي المقبول، فلقد كان الأُسطى حماده الشحات يُكنّ لزهرة حبًّا خالصًا كأنّها أصغر بناته، وكان أكثر تدليلا لها حتى من أبويها وأشقّائها، ومن إسلام نفسه.

*****

45

رضا يا رضا يا رضا. رضا يا رضا. رضا يا رضا تعالَيْ يا أُم رضا. تتعالى أصوات نحو نصف المحتجزين منغَّمة وهم يغنّون للفتى رضا، رضا كان واحدًا من بين أصغر ثلاثة فتيان بين المحجوزين، أكبرهم محمود يدرس في الثانوية الأزهرية، وأصغرهم أسامة ناجح في الإعدادية أُلقي القبض عليه رفقة والده!! ورضا الذي لم يكمل تعليمه ويعمل عامل نظافة في سوبر ماركت وهو في نحو السابعة عشر من العمر أو ربما أقلّ، زنجي البشرة، قوي الجسد، مفتول العضلات لامعها، كأنّه لاعب ألعاب قِوَى من أفريقيا السوداء. هذا الغناء المرح، كان ينطلق في بعض الأمسيات الرائقة، أو في مطلع بعض الأمسيات الرائقة، لأنّ رضا نفسه في غير مطالع الأمسيات الرائقة تلك، كان أهمّ عنصر من عناصر المشاجرات داخل العنبر، الولد رغم قوّته البدنية الظاهرة والقادرة على مواجهة كافّة التحديات المادية، محدود الذكاء بشكل لافت. ولا يستطيع التواصل مع محيطه الاجتماعي بشكل مقبول، وجد نفسه في واقع عصيّ على فهمه، لا يعرف لماذا جيء به إلى هنا؟ وحتى متى سيظل حبيسًا ولا يدري من أمره شيئًا، وهو لا يستطيع أن يعيش مثل هؤلاء الرفاق الذين وجد نفسه بينهم من دون مناسبة، لا يستطيع أن يضحك ضحكًا هستيريًا كما يضحكون عندما تأخذهم نوبات الضحك الهستيري، ولا يستطيع فهم حديثهم حينما يلتفّون حول الحاج صالح يتسمَّعون إلى دروسه عقب الصلوات. ولا يعرف لمَ يغضبون إذا غضبوا؟ ولماذا إذا ثارت سورات غضبهم تحوّلوا هكذا فجأة إلى وحوش كاسرة؟! لم يكن يؤلمه النوم على أرضية العنبر الأسفلتية غير الممهّدة، ولم يكن يشكو من تكسير عضلاته ووجع في عظامه عندما ينهض عن تلك الأرض الصلبة. لكنّه يعاني معاناة حقيقية بسبب نقص الطعام، لم

تكن كميّات الطعام التي يحصل عليها تسدّ الحدّ الأدنى من جوعه. ربما رأى في عيون رفاقه نظرات اشمئزاز وعدم رضا عن نوعية ما يُقدَّم من طعام، ولم يكن مقياس الجودة، ولا مقياس النوع داخلا ضمن مقاييسه من حيث المبدأ، لم يكن يعنيه سوى كميّة الطعام، وهو منذ جيء به إلى هنا مع هؤلاء وهو يتألَّم من الجوع، إنّ الرفاق يتركون بعض أرغفة الخبز لأنّ بها رائحة عفن أوضح نسبيًّا من الأرغفة التي التهموها بعفنها. ويتركون بعض اللوبيا أو الفاصوليا التي يأتي بها الجنود كإيدام، كون لذوعتها تزيد قليلا عن الحدّ الذي يتغافلون عنه. رضا كان يلتهم كل هذه البواقي، فهو أولى بها من أكوام القمامة خارج العنبر!

ومع ذلك لم يكن رضا يشبع، ولم يكن حتى يتغلّب على ألم الجوع المبرح الذي يقرص معدته فيبقيه مأزومًا طوال اليوم!!

ولم يكن معه أيّ نقود ليشتري شطائر ممّا يحصل عليها بعض الرفاق من خلال الكانتين. ولم يمرّ على خاطره أن يقترض نقودًا من بعض كبار الرفاق الذين لو لجأ إليهم لاستطاعوا أن يجدوا له حلا.

أمام هذه الظروف القاهرة، أصبح لزامًا على رضا أن يسرق بعض مثلثات الجبن المصنوعة أساسًا من مادّة شبيهة بالمطاط. وقِطع الحلاوة الطحينية ذات القوام الخشبي، وبعض أرغفة الخبز الأقلّ عفونة. وتمّ اكتشاف السرقات، وثارت ثائرة حمدي الترزي، وبدأ عراك بين عملاقين في الجسد لم يكد عقلهما أن يصل مرحلة التمييز، رضا بطبيعة نموه العقلي، وحمدي الترزي بسبب امتناعه الإجباري عن الكيف، وندرة السجائر التي يدخِّنها طوال اليوم، وانعدامها ليلا!!

اشتدّ العراك وتدَّخل فيه رفاق آخرون، ووصل الصياح والصخب إلى خارج العنبر رَقَم واحد، ووصلت الضجّة إلى مسامع الحُرّاس والأمناء، وإزاء ذلك داهمت قوة التأديب العنبر رَقَم واحد!

46

لم يعرف القَنِّي الحبّ إلا مع سهام ابنة الجيران. لا يحبّ أن يردّد الأكليشهات غير الواقعية المحفوظة من أنّها أجمل فتاة في الكون، وأنّ روحها جذبت قلبه، وأنّهما مخلوقان لبعضهما البعض! علَّمته الحياة أنّ لكل فتاة جمالها، ولكل جمال سحره الخاص، والحبّ قائم على نظرية العرض والطلب، طرف يلقي شباكه إلى طرف آخر، إما يتجاهلها، أو يرفضها فتنتهي قصّة قبل أن تبدأ. أو يقبلها فتولد قصّة حبّ! لا يذكر القَنِّي أيّهما ألقى شباكه أوّلا، لكنّه يدرك أنّ تواطؤًا ما حدث بينه وبين سهام. وسهام فتاة حلوة، أو مليحة، أو مريحة، خمرية البشرة، عيناها سوداوان، طولها مناسب لطوله، حيث يميل إلى قصر القامة. أنيقة في حدود بيئتها، ناعمة كحلوى الغُرِيِّبة!! ارتبط بها وارتبطت به، بوجودها في عالمه شعر شعور الطير الذي أصبح له عشّ يعود إليه وإن طالت غربته أو هجرته. وبها استغنى عن فتنة الفتيات اللاتي يصادفهنّ عشرات المرّات كل يوم. أصبح لا يُمتِّع بهنّ سوى نظره السادر في الفتنة وحده. وادّخر كل دقّة قلب لسهام. لا القَنِّي ولا سهام كانا مستعدّين بأيّ درجة من الدرجات للزواج. من كانت مثل سهام وفي ظروف أسرتها المالية، إما أن تنتظر عريسًا ممّن يُطلق عليهم جاهزون من كل شيء، فيحملها على سيارة أنيقة ويدخل بها إلى عشّه الذهبي، وهذا منعدم التواجد في مجتمع الحارة الذي نشأت وتعيش به، وإما تنتظر رجلا خليجيًّا ثريًّا أو عائدًا من الخليج. لكنّها لو أرادت زواجًا تقليديًا من ابن حارتها، فعليها أن تكافح معه هي وأهلها العديد من سنوات العمر لتجهيز مسكن الزوجية. والقَنِّي يكسب مالا، لكنّه ينفقه كله على المزاج. ولو احتفظ به كله لاحتاج إلى بضع سنين ليستأجر شقّة، ويقدِّم شبكة، ويكون مؤهّلا تأهيلا أقلّ من المتوسط لفتح بيت وتكوين أسرة!! وهو لا يستطيع أن يستغني عن المزاج، ولا عن سهام، إحساسه بقربها منه وارتباط مصيرها بمصيره يشكِّل له إدمانًا أعنف من كل أنواع الإدمان التي يدمنها!

قال لها ذات مرة وهما يتسامران في ذلك المكان شبه المهجور الذي اختاراه مقرًّا للقائهما شبه السري:

- يحكون في التاريخ عن حاكم عادل اسمه سيدنا عمر بن الخطاب، كان يجول بالمدينة ليلا ليعرف أحوال الشعب. كان لعمر عُمَّال وموظّفون وقادة جند، وكان يستطيع أن يطلب تقريرًا عن أحوال الناس من هؤلاء، لكنّه كان يحبّ أن يتعرّف على أحوالهم بنفسه. مرّ على بيت فيه أطفال صغار يبكون وأمهم تلاطفهم، وصوت موقد مشتعل فوقه قِدر به ماء يغلي، استأذن بالدخول فأذنت له الأُم، وكشفت له غطاء القِدر الذي يغلي على النار، فإذا به عدد من قِطع الحجارة وكمية من الماء، وعرف أنّ الأُم احتالت هذه الحيلة لتوهم الصغار أنّها تعد لهم طعامًا حتى يملُّوا من الانتظار ويناموا، لأنّها لم تجد لهم طعامًا تسدّ به جوعهم!! فأحضر لها سيدنا عمر كميّة من الطعام. لكنّهم لم يذكروا في التاريخ أنّ سيدنا عمر كان يُزوِّج العُزَّاب العاجزين عن الزواج!!

قالت الفتاة في دهشة:

- لا أفهم لمَ تذكر لي هذه القصة وأنا أسألك عن حبّك لي!! هل تنتظر أن يزوّجنا الرئيس؟!

- حكايتنا معًا تشبه هذا القِدر الذي وضعت فيه الأُم قطعًا من الحجارة وكمية من الماء ليغلي ويوهم الصغار أنّها تُعدّ لهم طعامًا فينامون على الجوع. نحن أيضًا نمارس نفس الخدعة القديمة، نلتقي لنلهو ونعبث ونحلم ونحن متأكّدين تمامًا أنّه لا يمكننا الزواج. إنّها قصّة حبّ حتى يفرجها الله.

- الله يسامحك يا قَنِّي. هل أصبحت قصّة حبّنا ملهاة نتلهَّى بها؟

- وماذا تكون غير ذلك في نظركِ يا بنت الناس؟ غدًا تنسينها مع أوّل عريس جاهز يتقدَّم لخِطبتكِ!

نهضت سهام وعلى وجهها علامات الانزعاج ودلائل الغضب، صاحت بصوت باكٍ:

- إذن اتركني يا قَنِّي من الآن. مادام أنّك مستعدّ للتخلي عني لأوّل عريس جاهز يتقدَّم لي.

جذبها القَنِّي من ذراعها وهو يهمس:

- أنا أذكر لكِ الحقيقة. لا أريد أن أخدعكِ. أنا لست مؤهّلا للزواج. ولا أدري متى سأكون مؤهّلا.

قالت في أمل:
- انوِ أنت وأنا مستعدّة أنتظرك حتى تصبح جاهزًا.
رفع كفّه أمام وجهه في حركة احتجاج وأجابها:
- لا أحد ينتظر أحدًا يا حبيبتي. هذه أفكار لا يتمّ ترديدها إلا في الأفلام فحسب.
غلبها الإحباط، همست بلهجة مهزومة:
- وما العمل يا قَنِّي؟
نهض القَنِّي هذه المرّة وقال في جفاء:
- لا أعرف يا سهام. لا أعرف.
نهضت هي أيضًا بعصبية وقالت في انفعال وغضب:
- تعرف رَقَم محمولي. عندما تجد حلا هاتفني.
لم يحاول تهدئتها هذه المرّة، تركها تمضي في طريق بيتها يعصف بها الغضب، وحنق قلبها عليه. كانت تتلكّأ في سيرها تتمنّى لو لحق بها. تتمنّى لو كذب عليها بكلمات معسولة ليس لها رصيد من الواقع. لكنّه بدا مُصرًّا على مواجهة الحقيقة العارية. كان هو أيضًا محبطًا ومكسورًا. كان غاضبًا من نفسه، وغاضبًا أكثر على الدنيا التي تضنّ عليه بأبسط ضروريّاته كإنسان.

*****

47

اسوَدَّت الحياة في عين أبي حامد، وأصبح فؤاد أُمه فارغًا، وكان حامد يشعر بالخزي والعار، يشعر أنّ شقيقته طعنته طعنة نجلاء في كرامته ورجولته. لم تعد الأسرة تعرف كيف تستكمل مسيرتها في الحياة! لم يعد ثمّة حل يحفظ جزءًا من كرامة الأسرة المكلومة، إلا تدخل أهل الخير في الحي لعقد صلح بين الأُسطى أشرف وخاله. بعد مداولات مطوّلة، وزيارات مكّوكية يقوم بها كبار رجال الحي بين منزل أبي حامد الراقد في فراش مرضه منذ وقعت الواقعة التي زلزلت كيان الحي الذي يسكن فيه، وبين مقهى الحي حيث تتكثَّف الاجتماعات مع الأُسطى أشرف للبحث في سُبل إصلاح ما قد كان، يتّفق الجميع على أنّ الأمر

سيُعرض على حنان في جَلسة صلح يرأسها إمام المسجد بمساعدة رجال الحي، وسيتمّ تخييرها بين أن تتمسّك بعقد زواجها من ابن عمتها أشرف، وبالتالي تنتقل للإقامة معه في منزل والدته حتى يفترش لها شقّة الزوجية، ويتمّ إعفاء أسرتها من القيام بأيّ التزامات تجاهها وتجاه زوجها، لأنّ الزواج تمّ دون الرجوع إليهم، أو لها أن تطلب من أشرف القيام بتطليقها وتظل مع أسرتها. اختيار حنان إذن هو الذي ستقرّره جَلسة الصلح.

دقّات قلب أشرف ظلت معلّقة بشفتي حنان. لقد فقد الاتصال بها منذ ما كان. وأسرتها اطمأنّت ولا شكّ أنّها ما زالت بِكرًا لم يمسسها سوء. والعقاب الذي نالها فاق الحدّ بكل تأكيد. فهل تظل صامدة في معركة الحبّ؟

سيعرف فيما بعد أنّها لم تنطق بما نطقت به إلا حفاظًا على كرامة أبيها وسمعته بين الناس. كانت نفسها تذهب شعاعًا مثل أنفاسه التي كادت تتوقَّف. ولم يكن ممكنًا أن تنطق إلا بما نطقت به. وحَكَم أهل الخير على أشرف أن يطلِّق حنان إنفاذًا لكلمتها، ووفاء لوعده الذي قطعه على نفسه أمام الجميع أنّه ملتزم بكلمتها!!

*****

48

لقد تجلَّت الرؤيا كفلق الصبح المشرق، ولم يعد معنى للتسويف، في العطلة التالية مباشرة يتقدَّم لخِطبتها بعد جمع المعلومات الاعتيادية. يبارك والداه خطوة الخِطْبَة باغتباط. الدكتورة فرح تلك الروح التي اختارها قدر الله لشعبان، طالبة بكلية الصيدلة في فرقتها الثانية. تشترط أسرتها ألا يتم الزواج قبل أن تحصل على البكالوريوس. تمرّ ثلاث سنوات على شعبان وفرح يمارسان فيها حالة من الحبّ العذري شديدة الطرافة، تنتمي ربما إلى زمن شعراء الغزل العفيف.

إنّ العيون التي في طرفها حور *** قتلننا ثمّ لم يحيين قتلانا.

يصرعن ذا اللبّ حتى لا حراك به *** وهنّ أضعف خلق الله أركانا!

لا الحبّ ولا العمل في شركة الغاز، سيشغلان شعبان عن متابعة الشأن العام. مسكون هو على الحقيقة بحبّ أكبر هو انتماؤه العميق لهذا الوطن الذي يعيش في داخله. في ثورة يناير كان حاضرًا بقوّة ينشد تغييرًا يتيح لطفلته الرضيعة مستقبلا أفضل ووطنًا أرقى وأنظف!
رغم ثورية شعبان فقد كانت دائمًا ثورية شاعرية رومانسية رقيقة وحالمة!! فكما هو هادئ ورزين تتشاكل ثوريته معه. يفضّل في الانتخابات الرئاسية التي تلت الثورة، المرشّح الذي اختار مفهوم (المين استريم) أو المزاج الشعبي العام شعارًا لحملته. لم يسترح أبدًا للأيدلوجيات الصارخة المتنافرة. لقد جرَّب الصراع في الجامعة وكرهه ونأى بنفسه عنه.
لكنّ مرشحه يفشل في الوصول إلى جولة الإعادة، فينحاز شعبان إلى أخفّ الضررين، وهو الاختيار الذي استقرّ في ضمير الشباب أنّه لن يعيد إنتاج نظام ما قبل الثورة. شعبان صار واحدًا ممن أُطلق عليهم: عاصري الليمون! كل ما تمناه شعبان أن يشارك الشعبُ الرئيسَ بناء نظام جديد، ويعيد بناء مؤسّسات الوطن بطريقة تعكس نجاح ثورة الورد، الذي تفتّح في حدائق مصر!

*****

49

كتم المحتجزون جميعًا أنفاسهم من الرعب، لقد سبق السيف العزل، ولن يستطيعوا مهما حاولوا إصلاح الأمر أو تداركه، وخرجت الأمور عن السيطرة، وعليهم الآن أن يواجهوا موقفًا في غاية الحرج، وكل منهم يحاول أن يتوقّع نوع العقاب والتكدير الذي سيتمّ تطبيقه عليهم. اقتحمت قوّة من حرّاس المعسكر العنبر ومعهم عدد من حضرة الأمناء، وعلى قيادتهم ضابط جهوريّ الصوت أرغى وأزبد، ووعد وتوعَّد، ثمّ زمجر آمرًا المحتجزين بالوقوف على ركبهم، والدوران جهة الحائط على شكل مستطيل ناقص ضلع، ورفع أذرعتهم في الهواء، وحذارِ أن يسند أحدهم ذراعه إلى الحائط. رفع الشرقاوي يده في محاولة يائسة للتوَسّل لا الاحتجاج، فلقد أُجريت له جراحة لتغيير مفصل الرُكبة، ولا

يستطيع الوقوف على هذا الوضع وإلا تَلِفَت الجراحة. أتته زمجرة حضرة الأمين هادرة فأخرسته، آثر الشرقاوي تلف الجراحة على أن يتلَّقى علقة ساخنة من هؤلاء الحرّاس الأشاوس، قد تُتلف له كل ما بقي صالحًا للعمل من أعضاء جسده المترهِّل. ظلت زمجرة الضابط والأمناء مستمرّة:

- شدّ ظهرك هناك. أنت هنا ارفع ذراعيك لأعلى جيّدًا.

أومأ الضابط برأسه للحرَّاس، ففهموا إشارته وتقدّموا بهدوء إلى مجموعة من الكهول كبار السن ذوي الرؤوس الرمادية، فأداروهم جهتهم في صمت وأمروهم فأنزلوا أذرعتهم وجلسوا جلستهم الطبيعية، كانوا خمسة أشخاص تقريبًا منهم الشرقاوي الذي همّ بالتوسّل قبل دقائق. وفهم الكهول من تلك الإشارات الصامتة أنّهم مستثنون من هذا العقاب، فتنفسوا الصعداء. كان الحرّاس عندما اقتحموا العنبر يحملون أحزمتهم الثقيلة (القايش العسكري) في أيديهم يلوّحون بها، ويضربون بها على البوابة الحديدية الصمّاء فتصدر صوتًا مخيفًا، وعلى الجدران الصمّاء فيتضخّم الصوت ويعظم، فانهالوا بتلك الأحزمة على ظهور المحتجزين وهم على وضعهم وهم يزمجرون:

- من سيصرخ منكم سيُأخذ إلى زنزانة التأديب.

لكنّهم في الواقع لم يزيدوا عدد ضرباتهم على ظهر أيّ من المحتجزين المعاقبين عن جلدتين أو ثلاث على الأكثر، وكانت باقي الضربات توجّه عن عمد إلى الحوائط الصُمّ.

ومرّت اللحظات الرهيبة. الهول كان نفسيًا ومعنويًا، ولم يكن هولا ماديًا جسديًا. كان التأديب الأوّل الذي تعرَّض له ساكنو العنبر رَقَم واحد، مجرّد إنذار. تحذير من مغبّة التكرار.

غادرت فِرْقَة التأديب عنبر رَقَم واحد مع إيماءات من حضرة الضابط إلى الكهول الخمسة بترك الأمر هكذا حتى يعودوا. مرّت نحو نصف ساعة، كادت فيها قلوب بعض هؤلاء الكهول أن تنخلع على أغلب المحتجزين، فلقد كانوا -فيما عدا بعض الصخّابين في العنبر- شبابًا شديد الاحترام والمراعاة لظروف الاحتجاز، كانوا يشفقون عليهم ممّا نالوا من تنكيل غير مستحقّ، وممّا يمكن أن ينالهم عند عودة فِرْقَة التأديب،

حتى الصخّابون في العنبر، فهم كانوا يصخبون بسبب عدم قدرتهم على الصبر على ما لا يفهمون له سببًا!!
لكنّ فِرْقَة التأديب لم تعد. عاد حضرة الضابط اللطيف -حينما لا يزمجر- بمفرده، وأمر المعاقبين بإنزال أذرعتهم أوّلا، أردف ذلك بأن ألقى عليهم محاضرة قصيرة عن أدب السجون والمحابس، ثمّ أمرهم أن يجلسوا جلستهم الاعتيادية، ثمّ أخيرًا أمرهم بالدوران إلى فراغ العنبر. قائلا:
- هذه المرّة سماح. هذا إنذارً. مجرّد إنذار. لو تكرّر ما حدث اليوم مرّة أخرى فلا تلوموا إلا أنفسكم!
ثمّ التفت إلى الكهول الخمسة، وكلّمهم لأوّل مرة:
- أنتم رجال كبار في السنّ. ومن الواضح أنّكم جميعًا محترمون. يجب عليكم أن تختاروا من بينكم مسؤولا للعنبر، كما يفعل كل السجناء السياسيين، هذا المسؤول تكون له كلمة على هؤلاء الشباب. وسيكون هو المسؤول أمامي عن النظام داخل العنبر. اتّفقنا؟
- تمام يا فندم.
- اختاروا الآن من بينكم مسؤولا، وبلِّغوا به الأمين صباح الغد.
- حاضر يا فندم.
خرج الضابط اللطيف من العنبر، وأمر الحارس فأغلق الباب الحديدي المصمت، ودارت عيون الكهول الخمسة في وجوه بعضهم البعض، ووقع اختيارهم على الشرقاوي ليكون مسؤولا عن العنبر رَقَم واحد.

*****

50

مرَّت عليها ليالٍ وهي تنتحب حتى هزُل جسدها، واصفرّ لون بشرة وجهها، وظنّت أسرتها بها المرض. ولم يحاول القَنِّي، الذي انصرف إلى عمله على السيارة الأُجرة، وتدخين الحشيش وشرب الأنواع الرديئة من الخمر، كأنّه لم يتسبّب في جرح قلب سهام، لم يحاول استرضائها. لكنّه أيضًا لم يستطع أن ينساها. هو أيضًا يتألّم في صمت، ويداوي ألمه بكثير من السُكر!

عندما عادت لقاءاتهما بعد انقطاع، ظلت سهام تتودَّد إليه وتلاطفه، بينما ظل القَنِّي قلقًا مضطربًا شاردًا. سألته في اهتمام:
- ما بك؟ ما الذي يشغل عقلك ويسبِّب لك كل هذا القلق والتوتّر؟!
أجابها بعد كثير مراوغة:
- لا بدّ من وضع نهاية لقصّتنا هذه.
صدمتها إجابته. أعتم العبوس وجهها قالت في تجهّم:
- مُصرّ أنت على إثارة حنقي. نلتقي بعد طول خصام ثمّ تقول لي نضع نهاية لقصّتنا!
أجاب بجدية:
- يَجِبُ ألاّ نظل إلى الأبد نحيا في الأحلام والأوهام.
صاحت بانزعاج:
- حبّي لك ليس وهمًا يا قَنِّي.
قال في قسوة مفاجئة:
- يظل وهمًا كل ما لا نستطيع أن نلمسه بأيدينا.
- وماذا تريد أن تلمس؟
- أريدكِ أنتِ.
قالت في حنان:
- كلي ملك لك يا قَنِّي.
- بل أريدكِ حقيقة. لا أريد الانتظار.
صرخت في وجهه:
- حتى أنا أريدك يا قَنِّي. لكنّ ما تفكّر فيه يظل مستحيلا حتى نصبح ملكًا لبعضنا البعض على سُنّة الله ورسوله.
أشاح بوجهه عنها. مرّت لحظة صمت ثقيلة كسحابة حجبت عنهما الرؤية. قال متهكِّمًا:
- منذ لحظة واحدة كنت تدَّعين أنّكِ ملك لي. والآن تشترطين سُنّة الله ورسوله.
قالت في لطف:
- قلبي ملكك. لكنّ جسدي لن يكون إلا إذا عقدت عليّ.
نهض واقفًا وهو يصرخ في نفاد صبر:

- إذن لا فائدة من كل هذا. لن أعقد عليكِ. لن يقبل عاقل بأن يربط مصيركِ بمصير فتى مثلي ينفق أكثر ممّا يكسب.
- إذن...
قاطعها بصرامة بحركة حادّة من كفّه:
- لا تقولي لي كفّ عن تعلية المزاج، لأنّني لن أفعل.
- والحلّ يا قَنِّي؟
رانت لحظة صمت بدت بلا نهاية، قبل أن يجيب:
- الحلّ أن نتزوّج هكذا دون موافقة الأهل أو الناس. أنا وأنتِ فقط.
- لكن...
- لا تقاطعيني أرجوكِ. إمَّا أن يتحوَّل الحبّ إلى حقيقة ملموسة، نمسكها بين أيدينا. أو أن يذهب كل منّا في طريق ينتظر النصيب!!
بدت الدموع في عينيها، وهمست:
- أنت تطعنني في مشاعري يا قَنِّي.
قال بحنق:
- بل أريدكِ أن تكوني لي حقيقة لا خيالا.
- والشرف يا قَنِّي؟!
أجابها بامتعاض:
- لو كنتِ تحبّينني حقًّا كما تدَّعين فإنّ شرفكِ لي. فشرفنا واحد. إلا إذا كنتِ تلهين معي وتدّخرين شرفكِ لزوج المستقبل.
أشاحت بوجهها عنه، أمسكت دموعها بالكاد، نهضت ومضت مخلِّفة إيّاه، لم تتلكّأ في الطريق ليلحق بها، ولم يبرح مكانه، ظل يدخِّن سيجارته المحشوّة بالحشيش وينظر في العتمة إلى المجهول.
عجيب هو هذا الحبّ رغم الألم واللوعة والمرارة التي يسبّبها كل منهما للآخر، تبقى القصّة ماضية، وكأنّ الإنسان لا يستريح حتى يحصل على المزيد من الألم!! فلا القَنِّي تخلَّى عن سهام، ولا سهام كفَّت عن الحلم بالقَنِّي!!

51

ضاع الفتى أو هكذا ظنّ أنّه ضاع، لم يعد له بقاء في المدينة الظالم أهلها بعدما استباحت دمه، مع حبّه المهدور وكرامته المستباحة وإرادته المنخنقة. فرّ خارج البلاد تاركًا الوطن كله لهؤلاء الذين لا مكان بينهم لعاشق من زمن فات!!

خمس سنوات كاملة قضاها أشرف في غربته، لم يكن دخله من عمله يفوق كثيرًا دخله الذي يحصل عليه في بلده، لكنّه كان يفرّ من نفسه التي بين جنبيه. لم ينسَ لحظة واحدة أنّه دفن روحه في مدينته قبل أن يهاجر. ترك أمه الأرملة وحيدة لا سند لها ولا عون، إلا بقيّة من صحّة تتوكّأ عليها لتعيش ما بقي لها من حياة. يرسل لها ضِعف ما كان يوفِّره لها من مال عندما كان بجوارها، لعل فائض النقود يعوِّضها غيابه المؤلم. يحدِّثها هاتفيًّا كلما شعر أنّ نفسه برأت قليلا من جرحها الغائر. يخشى دائمًا من أيّ اتصال بوطنه ربما ينكأ الجرح الأليم.

حاول في سنوات غربته أن يجد سلواه في شيء نافع أو حتى ضار وغير مميت. لا القراءة أسعفته، ولا الخمر أنسته ما لا يريد نسيانه. الجرح يتعمَّق كل لحظة. ما هذه العربدة الوديعة التي لا تستطيع أن تفتك بأحزانه! كل مجون حاول اقترافه لم يكن كافيًا ليملأ فراغ روحه التي دفنها قبل أن يسافر، ولا ضمَّد جرح قلبه الغائر الذي ما زال نازفًا. حتى الحلم الموهوم الذي حاول أن يستكين إليه يعلِّل النفس بالأوهام يخدعها لتكفّ عن حنين وعن جزع، بأنّ حنان بعد كل ما قد كان ربما تستطيع أن تنتظره. ربما يتغيَّر موقف أبويها أو حتى يرحلا عن الدنيا!! القسوة التي عشّشت مكان روحه لم تترك مكانًا ما لرحمة أو شفقة. حتى هذا الحلم الواهن الذي ظل يكافح ليجد له مكانًا بين أحزانه التي لا تزول. وأدوه وهو يعلم نبأ زواج حنان. لعن نفسه ألف لعنة ومقت شهامته ورجولته التي منعته من أن ينال حنان قبل أن ينالها غيره. كانت زوجته. لو أرادها بتصميم ما امتنعت منه، لكنّه احترم العهد! تصدر رغمًا منه شخرة حانقة على وفائه وعلى كل القيم. أيّ قيمة في دنيا الغاب التي لا مكان فيها إلا للضباع؟! وهل لو كان أخذ حنان كما يجب أن يأخذ زوجته، وأصبح في رحمها جنين من صلبه. هل كانوا يجرؤون على تطليقها

منه؟ لعنة الله على القيم وعلى المبادئ وعلى هذا الهراء المتستر خلف ستار الأخلاق والمثاليات. أشقّ التضحيات هي تلك التي لا يصبر من قدَّمها على مرارة تبعاتها! ليتني لم أضحِ برغبتي فيها من أجل أن يجني ثمرتها وغد، كل مؤهلاته أنّه لم يفقد أباه صغيرًا، فظل ينفق عليه وينقده مصروف يده حتى حصل على شهادة جامعية بمثابة جواز مرور إلى خِطْبَة بنات الأسرة المتعلّمة، متوسّطة الطبقة الاجتماعية. ألا لعنة الله على الشهادات الجامعية وعلى النظام الاجتماعي نفسه. هل يترك نفسه ليُجنّ؟ أم أنّ الجنون هو ما انتهى إليه حاله ولا أمل له في شفاء؟! أيام وليالٍ مرّت عليه تمنّى فيها الموت مع كل ثانية تمرّ. حتى الموت رغب عنه وزهد فيه. لم يعد يأبه سواء أقبل الموت أو أعرض، هو في الواقع مَيّت ينتظر مَن يواريه التراب. جثّة عفنة تمشي على الأرض بالدفع الذاتي. طال شعر رأسه. وتهدَّلت لحيته. والتقى شاربه الكثّ بها وأصبح مرآه يثير ذعر زبائنه وعملاء الورشة التي يعمل بها، حتى رائحته نتنت. صار جيفة عفنة بكل ما في الوصف من معنى.

*****

52

كل من يتعامل مع إيهاب قبل أن يحتكّ به جيّدًا لفترة طويلة، يظنّ أنّه ابن مسؤول كبير في الدولة أو ابن ثري من أثرياء البلد. ولم يكن الفتى غير ابن موظّف بسيط يسكن في أحد الأحياء الشعبية العادية جدًّا، توفّاه الله وترك ابنه في رعاية أُمه الموظّفة البسيطة هي الأخرى، وإن كانت سليلة إحدى العائلات العريقة غير أنّها كانت ابنة الفرع الفقير منها. تكدّ أُمه من أجل المعيشة ويكدح معها الفتى منذ بزوغ فجر شبابه. يعمل إيهاب إلى جوار دراسته في أحد المعاهد الخاصة ولم يسعفه التخرّج فيه بعد. فنظرًا للظروف المادية والعملية يستغرق العامين والثلاثة قبل أن ينجح في الانتقال إلى الفِرْقَة الدراسية التالية. يعمل في تركيب وتجارة العطور المقلّدة، فهي تجارة لا تحتاج إلى رأس مال كبير، ولا تحتاج بالضرورة إلى العمل من خلال متجر، فهو بائع متجوّل، يحمل بضاعته من قوارير العطور في حقيبة، يحرص إيهاب

على أن تكون في غاية الأناقة، ويدور بها على المقاهي والكافتيريات والأندية وأماكن تجمّعات الشباب، أو العائلات، تحتاج هذه المهنة إلى قوّة شخصية تمنح البائع المتجوّل قدرة على مواجهة الزبائن بغير تردّد أو خجل. وكان إيهاب أستاذًا في مهنته، فهو لا يُقبل على المجتمعين بصفته بائعًا متجوّلا، ولا في هيئة بائع متجوّل، ولا بالتردّد الذي عادة يصاحب قسمات وجه ولغة جسد بائع متجوّل، ولكنّه يهبط على جماعة ما في هيئة مندوب دعاية لإحدى شركات العطور العالمية الكبرى، يستأذن في الجلوس على مائدتهم، يُخرج من حقيبته كتيّبًا يحمل أسماء أرقى العطور وصور عبوّاتها، ويفتحها أمام المجموعة، ويحدِّثهم في عجالة خاطفة عن اسم الشركة ومدى شهرتها ونبذة عن تاريخها المعبّر عن العراقة والخبرة، ثمّ يمرر عليهم عيّنات (توستر) من المنتج الأصلي للعطر، بحيث يستحوذ على إبهارهم، ثمّ يبدأ يعرض عليهم الأسعار الخيالية لهذه المنتجات، بحيث يتجاوز سعر القارورة الواحدة حجم خمسين مللي عدّة مئات من الجنيهات. وهنا يركّز نظراته الثاقبة على وجوه الزبائن، ويلاحظ خيبة الأمل التي ترتسم بوضوح على وجوههم، فليس في استطاعة أيّ منهم المالية بطبيعة الحال شراء قارورة عطر بهذا الرَّقَم الخيالي المستفزّ. وبعدما يحصل على التأثير المطلوب تمامًا، يلقي بورقته البيعية الأخيرة في العرض:

- رغم أنّني أنتمي لهذه الشركة العالمية العريقة. ورغم أنّني أتقاضى راتبًا ممتازًا باليورو يحلم بمثله أيّ شاب في البلد. ورغم أنّ تركيبات هذه الأنواع الخاصّة من العطور تعد من الأسرار الحربية المجرّم تداولها. ورغم أنّني أحبّ شركتي جدًّا. لكنّني أحبّ شباب وفتيات بلدي أكثر من أيّ شيء آخر في الوجود. لذلك فلقد حصلت بطرق سرّية وبعد محاولات مضنية على سرّ هذه التركيبة. لقد صنعت لشباب بلدي نفس العطر بنفس الكفاءة وذات التركيز. وبسعر مناسب جدًّا.

ثمّ بحركة بهلوانية مفاجئة، يخرج القوارير المقلّدة من العطر، يرسل من إحداها بخّات خفيفة في الهواء على مستوى أنوف الجالسين. ثمّ يهتف بندائه الأخير:

- هذه آخر خمس قوارير في حوزتي من هذا النوع. سعر القارورة منها مائة جنيه فقط. إذا طلبتم القوارير الخمس الآن ستدفعون ثمن ثلاث فقط وتحصلون على خمس قوارير. ادفعوا فقط ثلاثمائة جنيه. قارورتان هديّة مجّانية فرصة لن تتكرَّر.
ويتكرَّر العرض!!

*****

53

انصبّ صُلب التحقيقات على طلاب الجامعة الثلاثة، هاني وشقيقه هشام، وصديقهما محمود، كانوا في نحو العشرين من أعمارهم الغضّة، هاني وصديقه محمود زملاء في الفِرْقَة الثانية لكليّة الهندسة، وهشام طالب في الفِرْقَة الأولى بكليّة الآداب. وهم ثلاثة من الشباب العاديين الذين تلتقي أمثالهم كل يوم مئات المرات، كلهم أمل وطموح، وشيء من استخفاف بالواقع ومخاطره، وجنوح إلى اللعب والتسلية والترفيه في حدود أعراف المجتمع. ولم يكن أيّ منهم مؤدلج فكريًا أو سياسيًا. حتى عندما اندلعت ثورة يناير، الحدث الأبرز في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، كانوا لا يزالون تلاميذَ في المرحلة الابتدائية. تشكَّل وعيهم بالوطن في تلك المرحلة السِنِّية الغضّة مع أغنية (عزيز الشافعي ورامي جمال):
يا بلادي. يا بلادي. أنا بحبّك يا بلادي
ثمّ هؤلاء الشباب مع الأغلبية الغالبة من شعب مصر. سلَّموا أمر السياسة لمحترفي السياسة، انتبه الآباء للقُمة عيش الأُسرة والأولاد، واتّجه الشباب لاستكمال دراستهم لتحقيق آمالاهم وطموحاتهم في غد أفضل ومستقبل مبهم. لم يعد أحد من عموم أفراد الشعب يتعاطى مع السياسة، ربما قبل عَقْد أو أكثر من الزمان، كان أعضاء حزب الكنبة يمارسون السياسة عن طريق تبادل الحديث العشوائي غير المدعَّم لا بالعلم ولا بالمعلومات، ويستند أكثر ما يستند إلى الشائعات التي يروّجها الفُرقاء السياسيون، وفي أحسن الأحوال إلى الانطباعات الشخصية، والأفهام

الذاتية لمتعاطي السياسة من خلال حزب الكنبة، الحزب ذو الأغلبية المطلقة في مصر. وربما في الوطن العربي بأكمله.
في عصر السيولة الإعلامية عن طريق الفضائيات الخاصّة ووسائل التواصل الاجتماعي، صار التحليل السياسي مقتصرًا على عدد كبير من المحلّلين الاستراتيجيين أصبحوا نجوم الفضائيات والميديا.. فتفرَّغ أفراد حزب الكنبة إلى مشاهدة برامج التوك شو، أكثر من اهتمامهم بأحاديثهم الجانبية على المقاهي والمصاطب القروية. وأخذ الشعب يسمع عن السياسة ولا يتحدَّث عنها أو فيها.
هاني ومحمود وهشام من الجيل الذي ليس له أدنى اهتمام بأيّ نشاط عامّ، ولا حتى خاصّ خارج نطاق الدراسة والترفيه السهل المريح، حتى الرياضة لا يمارسونها، ولا يخطر على بالهم ممارسة أيّ نوع من أنواع النشاط الاجتماعي!!
يُقبل حضرة الأمين معه ورقة صغيرة ينادي، ثمّ يصطحب أحد الشباب الثلاثة معه إلى التحقيق، يغيب الفتى ساعة أو بضع ساعة ثمّ يعود متجهِّم الوجه، لا يكلِّم أحدًا ولا يسمح لأحد أن يكلّمه. ثمّ ينادي حضرة الأمين على الاسم التالي، ويتكرَّر الأمر. عندما يعود ثلاثتهم من التحقيقات يستمرّون على هذا الوضع المكتئب عدّة ساعات قبل أن ينخرطوا قبل منتصف الليل مع رفقائهم في لعبة صلَّح!

*****

54

تعلم وهي تقرّر أن تذهب معه إلى الشقّة التي يستأجرها من صديق له بالساعة، أنّها غير خاضعة لتأثير أيّ مخدر سوى إلحاحه عليها. تدرك ما هي مقبلة عليه، وبحسبة غير معقّدة تضع شرفها وكل ما يمثِّله لديها من قيمة في كفَّة، وفي الكفَّة الأخرى تضع متعة ما متخيّلة ومرغوبة. ظلت الكفَّتان تتأرجحان منذ فاتحها القَنِّي في الموضوع أوّل مرّة. لكنّها تعلم أيضًا أنّ كفَّة القيم أفلاطونية مؤجّلة، وأنّ كل لذّتها تنبعث من عالم خفي غير محسوس ولا ملموس، بينما كفَّة الرغبة ملموسة متجسّدة. لم تكن تحتاج إلى مستوى أكثر تقدمًا من العلم أو الثقافة، لتُجري

هذه المعادلة الأزلية. إنّها معادلة قديمة مركوزة في الفطرة والغريزة. فطرتها تأمرها بالامتناع، وغريزتها تدعوها لتتقدَّم خطوة إثر خطوة.
عندما دلفت معه إلى الشقّة، كانت مضطربة قلقة متوتّرة، وحانقة، قلبها يدقّ بعنف، لم يكن مظهرها يجلب لديه أيّ شعور بالرغبة، قال بقسوة لازمته منذ مدّة:
- إن لم ترغبي فيما أنا راغب فيه، فلتنزلي. أمامكِ باب الشقّة لم أغلقه بالمفتاح. اذهبي إن شئتِ.
انتحبت، فصرخ في وجهها:
- لا أريد أن أخسر (الدماغ) الذي أُنفق عليها في تعليتها. لا أحبّ الغمّ والهمّ. ولا أحبّ البكاء. انصرفي من حيث أتيتِ.
قالت بألم:
- وأنا لا أريد أن أخسرك. لا أستطيع أن أخسرك.
اعترته مسحة كآبه مفاجئة أفقدته الرغبة في كل شيء. تقدَّم من باب الشقّة فتحه وخرج، وجذبه خلفه بقوّة كادت تحطّم زجاج نافذته. تركها متكوّمة على نفسها تنتحب.
رغم التجربة المريرة، وخيبة أملهما معًا، خيبته وقد انهار من فوق قمّة برج الرغبة إلى سابع أرض الواقع المرّ الأليم، وخيبتها مرّتين، مرّة عندما انكسرت مقاومة منظومة قيمها على عتبات رغبة القَنِّي الجارفة، ومرّة عندما فشلت حقيقة في إسعاد حبيبها. رغم ذلك لن تكون هذه هي آخر مرة يراودها فيها عن نفسها، ولن تكفّ هي أيضًا عن الحلم به.
الاستسلام لرغبة النفس هزيمة نهائية لن تقوم لها قائمة بعدها، فإلى متى ستقهر رغبتها المحمومة؟
عندما تمّ كل شيء أدركت ولو بعد فوات الأوان، أنّ ما فقدته لا يمكن تعويضه. تبكي وتنتحب وتطلب من القَنِّي أن يظل رجلا معها إلى النهاية. يجيبها وهو شبه مخدّر:
- ما حدث حدث بإرادتنا معًا. ونتحمَّل مسؤوليته معًا. أخذنا حقّنا من الدنيا. ومن الحبّ. جعلناه حقيقة لا خيالا.
- وثمّ؟!
سألته بانزعاج حقيقي. أجاب في لا مبالاة:

- ثمّ نظل نستمتع بالحبّ إلى ما لا نهاية.
- هكذا بلا زواج ولا اعتراف الناس والمجتمع؟!
- قولي بلا قيود ولا تعقيدات ولا مسؤوليات..
- قَنِّي نحن ندمّر حياتنا.

قهقه قهقهة خشنة، قال:

- أعجبتِني يا بنت لأنّكِ لم تقولي دمّرتَ حياتي. جمعتيني معكِ وهذا ذكاء منكِ أحبّكِ من أجله. يا بنت الناس أنا وأنت حياتنا ضائعة أساسًا من قبل حتى أن نولد. نحن ضائعون. ولدنا في حارة ضائعة. في مدينة هي في الأصل سقطت سهوًا من التاريخ ومن الجغرافيا.

قاطعته وعلى وجهها تعبير مريع:

- وثمّ؟؟؟

أخرج السيجارة المحشوّة بالحشيش من بين شفتيه، واقترب بوجهه من وجهها، زفر فيها كل الدخان الأزرق الذي احتفظ به هُنيهة في رئتيه، مختلطًا بأنفاسه الحارّة. وضع بقيّة سيجارته بين شفتيها. حثّها أن تجذب أنفاسًا متعاقبة. أفلت وجهَها حتى تُتمّ سُعالها، ثمّ جذب وجهها وأخمد شفتيها بين شفتيه، فلمّا استقرَّت بين أحضانه، همس بخدر:

- ثمّ نتمتّع. ثمّ نظل نتمتّع. تمتعي معي يا (سوسو) وانسَيْ الدنيا.

باتا ليلتهما هكذا، فلم يفيقا لطلوع النهار. لكنّ القَنِّي نهض عقب أذان الظهر في المسجد القريب، اغتسل وهبط إلى عمله على السيارة الأجرة. تلكَّأت سهام حتى تأكَّدت من غيابه. جمعت أشياءها المبعثرة وهبطت إلى الشارع، لم تتوجّه إلى بيت أسرتها، انحرفت إلى طريق الكورنيش، اقتربت من فجوة تهدَّمت -بعوامل الزمن والإهمال وأسباب أخرى- في سور الكورنيش، تمتمت بما استحضرته ذاكرتها المشوَّشة المضطربة من أدعية استغفار. التفتت إلى المدينة الغائمة التي يصفها القَنِّي بالخروج من التاريخ والجغرافيا. استدارت وهي تغمض عينيها، تقبض على نظرة الوداع الأخيرة، وألقت بنفسها في فرع الترعة. كان المكان هادئًا ورصيف الكورنيش خاليًا تمامًا من المارّة، فتمّ كل شيء بصمت وبلا ضجيج.

55

حضرت المعجزة في صورة سمير زميله في الورشة ورفيقه في سكن العمّال الذي يأويان إليه. أعاده سمير الذي ضرب الحياة قبله بالحذاء القديم البالي، فلم يعد يبالي بمتقلّباتها وتناقضها، ولا يكفّ عن الضحك، أعاده إلى تلك الحياة الغَرورة ذاتها رويدًا رويدًا. ونسِيَ أشرف هذه المرّة ما عزمت إرادته على نسيانه. ومع خبر إنجاب حنان مولودها الأوّل. تحوَّلت المأساة إلى ذكرى. ولم تعد الذكرى تنكأ إلا ندوبًا كادت تبرأ. فسبحان الذي جعل قمّة تحقّق المأساة هي ذاتها لحظة برء الألم، كذلك البرد الذي ينزل على قلب الفاقدين بعد مواراة فقيدهم الثرى، رغم أنّ لحظة النزول به إلى المقبرة تمثّل أوج نيران الفقد المشتعلة. فماذا بعد التوهّج إلا الرماد؟ كأنّ لحظة اليقين بأنّ المفقود لن يعود هي ذاتها لحظة انطفاء نار الألم!!

بقلب منطفئ ما عاد قادرًا على التوهّج، مثل قطعة فحم اشتعلت فتوهّجت ثمّ احترقت فصارت رمادًا، أخيرًا عاد أشرف إلى وطنه ليدرك والدته قبل أن تغيب عن الحياة.

*****

56

بعد أقلّ من عام يؤمن شعبان أن أوّل رئيس شرعي بعد يناير مُنتخَب انتخابًا حرًّا نزيهًا ليكون صوت الحرافيش، ومعبّرًا عنهم صادقًا معهم ومنحازًا إلى صفوفهم. فإذا هو يعيش في معزل عن هؤلاء الحرافيش. مُصرٌّ على خوض معاركه الجانبية بمفرده ودون شراكة من انتخبوه!

قُبيل اندلاع الاحتجاجات الصاخبة قال لزميله في العمل، وكان من أنصار الرئيس، ردًّا على تلك المبرّرات التي يردّدها ليل نهار في محاولة لامتصاص الغضب المتنامي:

- إذا كان لدى الرئيس بعض هذه المبرّرات. وكل تلك العقبات. وهاتيك المؤمرات. فلماذا لا يصارح الشعب بها ويترك له حرّية اتّخاذ القرار؟!!

- ليس كل ما يُعرف يُقال. وليس كل ما يُقال قد حان أوانه...
- إذا كان لم يحن أوانه ونحن نوشك على احتجاجات هائلة لن تُبقي ولن تذر. فمتى سيحين أوانه إذن؟!
- لن يحدث شيء ممّا في خيالك. هؤلاء الفلول والمرتزقة لن يغيّروا من أمر الله شيئًا.
- لا أحد يغيّر من أمر الله شيئًا. لكنّ سيدنا عمر بن الخطاب كان يقول: إنّما نفرّ من قدر الله إلى قدر الله. ففرّوا إلى الله.
- قل يا رب.
- كلنا نقول يا رب. وتذكَّر أنّني نبَّهتك. آخر فرصة للرئيس ستكون خطابه الليلة. فإمّا يصارح الشعب ويقنعه أو يستجيب لمطلبه في إجراء انتخابات رئاسية مبكّرة. أو سننزل ضدّه يوم الأحد!
- سيهُزم الجمع ويولّون الدبر.
- تعرف يا صديقي كم أنا مسلم ملتزم بديني والحمد لله. ورغم ذلك لم أحاول مرّة أن أستخدم آيات الله في الخلاف السياسي. وفي مقدوري أن أستخدم نفس الآية الكريمة ضد جمعكم، لكنّي أستحي من الله.

صمت المُحاوِر على مضض ربما منعًا لتطوّر الأمور. لكنّه انصرف هازئًا واثق الخُطا. فالله ناصر رسله والذين آمنوا، وهازم الجمع الذي تتصدَّره الممثّلات العاريات الكاسيات!!

لم يأتِ الخطاب المطوّل الأخير للرئيس بجديد يُذكر، ولم يشعر الناس أنّ الرئيس المنتخَب يشعر بنبض الشارع، أو يقدِّر حجم الغضب المكبوت، لا يعرف شعبان هل ضلّله مستشاروه، وهوّنوا عليه الأمر؟ أم أنّ نظرة هؤلاء المستشارين لم تختلف عن النظرة الاستعلائية التي ينظر بها زميل عمله للأحداث؟

57

سيدرك إسلام مثلما ستدرك زهرة أنّ الحياة الزوجية مختلفة اختلافًا بيّنًا عن حياة الحبّ والارتباط قبل الزواج، وسيكتشفان معًا أنّ تلك الحياة الزوجية تختلف جذريًّا عن الأحلام الرومانسية التي عاشها كل منهما نحو خمسة عشر عامًا قبل الدخول إلى عالم الواقع عن طريق بوّابة الزواج السعيد! لم تكن هي الحياة الموعودة في الروايات العاطفية الغارقة في المبالغة والتفخيم. يكتشف إسلام في زهرة وجهًا لم يره من قبل، وجهًا غير وجهها الطفولي البريء الفاتن والجذّاب بشدّة، ولسانًا غير اللسان العذب الذي يقطر حلاوة، وصوتًا غير صوتها الندي الهادئ، سيرى السيدة زهرة العنيدة صعبة المراس التي لا تكلّ ولا تملّ حتى تنفّذ رأيها أيًّا كان هذا الرأيّ، فكما اعتادت هو الصواب المطلق. وسترى زهرة في زوجها إسلام شخصًا غير الذي ارتبطت به وأحبّته، إسلام ذلك الفتى الوسيم الأنيق الحاني الرقيق، الذي يبادر بمناسبة ومن دون مناسبة ليقدّم لفتة حبّ رقيقة حلوة. الشابّ الرزين الهادئ ذو الصوت الشجي المميّز، والابتسامة التي تنير وجهه الأبيض المشرق، يتبدّل الآن أمام ناظريها إلى رجل يريد أن يأمر فيُطاع، وأن يُنفق بحساب، وأن يناقش كل تصرّف تُقدم عليه، وأن يعطي لنفسه حقّ توجيهها ونصحها، يرفع صوته حينما يفشل في إقناعها بوجهة نظره، ويغضب عندما تخالف أمره، ويترك البيت ضيقًا وتبرُّمًا إذا أطالت المجادلة معه، وقد يظل نحو أسبوع يتجاهل وجودها، ويتحاشى النظر في وجهها، ويمتنع عن محادثتها، إنّها تعرف أنّ هذا ما يسمونه الهجر. والهجر بالنسبة لزهرة عقاب قاسٍ هو والعذاب سواء، وإسلام يراه هجرًا جميلا، ويعده الوسيلة الممكنة لعلاج الحال المعوجّ، وتعديل الميزان المختلّ!!

أن يختفي أكثر من خمسة وعشرين شخصًا من مدينة واحدة صغيرة، وفي ظروف غامضة، ينتمون إلى مهن وحرف مختلفة، وإلى مستويات اجتماعية وثقافية متفاوتة، ولا يعرف أيّ من ذوي المختفين عِلاقة ما تربط بين صاحبهم المختفي، وبين بقيّة أسماء المختفين، فلا رابط ولا تجانس ولا مشاكلة. فإنّ هذا حدث جلل غطّى أجواء المدينة بهواء ثقيل.

لم تشهد المدينة مظاهرات سياسية حقيقية، وإذا كانت قد شهدت مثل تلك المظاهرات، أو بفرض أنّ هؤلاء المختفين قد انتووا القيام بهذه التظاهرات وتمّ إلقاء القبض عليهم قبل أن ينجحوا في تنفيذ مخطّطهم، فلماذا لم يُعرضوا على النيابة حتى الآن رغم مرور نحو أسبوع على اختفائهم؟! ولماذا تنكر كل الأجهزة الأمنية في المحافظة احتجاز أصحاب هذه الأسماء لديها؟ فلو أنّ أحد هؤلاء المختفين أخطأ، فمن الطبيعي أن يعلن جهاز أمني ما أنّه موقوف رهن التحقيق. أمّا أن يصبح رهط من أبناء مدينة ما في حكم المفقودين، فهذا أمر عُجاب!

والد محمود طالب كُلْيَة الهندسة الأستاذ بدر الدين، يُعدّ واحدًا من أهمّ وأشهر محامي المدينة المرموقين، معروف في الأوساط الأمنية والقضائية بانتمائه الحقيقي وولائه الخالص للحكومة وأجهزتها التشريعية والتنفيذية، وهو قريب الصلة كثيرًا بالعديد من القيادات التنفيذية والشرطية بالمحافظة، ورغم علاقاته واتصالاته الحثيثة المتميّزة لم يستطع الحصول على معلومة واحدة عن مكان وجود ابنه! وهو يؤكّد لقيادة أمنية رفيعة المستوى على عِلاقة صداقة وطيدة به قائلا:

- ابني محمود لا يمكن أن يكون له نشاط ما. هو في الأصل ليس له نشاط من أيّ نوع. حتى التفكير مجرد التفكير لا يمكنه أن يفكّره خارج الصندوق. الصندوق بالنسبة له هو ما أُلقيه إليه أنا شخصيًا من معلومات وأوامر.

- الشباب يا عزيزي وما أدراك ما الشباب. إنّهم ينساقون هذه الأيام إلى اللجان الإلكترونية المحرّضة. ومحمود مثل أبناء جيله غير محصّن ضد التحريض.

- يا حضرة اللواء أنا أفتّش محمول ابني بنفسي، وأراجع حساباته المختلفة أوّلا بأوّل، وكما أختار له أصدقاءه بعد التحرّي عنهم تحرّيًا دقيقًا، أختار له أيضًا صداقاته على وسائل التواصل الاجتماعي. محمود أساسًا لا يستطيع تركيب جملتين على بعضهما.
- هذا الذي يظنّه كل الآباء في أبنائهم.
- لا يا حضرة اللواء، ففي الحقيقة محمود لم يكن سيخرج من البيت تلك الليلة التي اختفى فيها هو وصديقه. لقد كنّا نحتفل في البيت بمناسبة خاصّة بشقيقته، وهو كان جالسًا يتابع المباراة، ولما امتلأ المنزل بصديقات أخته، وأصبح هو الفتى الوحيد بين الحاضرات، أمرتُه أن ينزل ويستكمل متابعة المباراة في أحد الكافيهات. هاتف صديقه هاني أمامي وتواعد معه على اللقاء على المقهى.
- صدِّقني يا بدر بيه لو استطعت أن أعرف شيئًا عن مكان ابنك محمود فسوف أتّصل بك مباشرة. في النهاية محمود مثل ولدي.
- شاكر أفضالك يا معالي الباشا.

هكذا لم يستطع الأستاذ بدر الدين المحامي الكبير ذو العلاقات السيادية المتميّزة، الوصول إلى معرفة مكان اختفاء ابنه وصديقه، ولا التهمة الموجّهة إليهما، أمّا أهالي ومعارف باقي المختفين فكانوا أشدّ حيرة وفزعًا، يتساءلون في رعب عن المصاير الغامضة التي تنتظر ذويهم! أفراد أُسر المختفين يروحون ويجيئون على كل الأجهزة الأمنية في المحافظة، لعلّهم يحصلون على معلومة ما دون جدوى!! بعضهم لم يعد يهتمّ بمكان المختفين، بقدر اهتمامه بكيفيّة توصيل أدويتهم الضرورية إليهم. أغلب محامي المدينة لم يستطيعوا الوصول إلى معلومة ما عن هؤلاء المختفين، البعض تطوَّع وسافر إلى القاهرة وراجع النيابات التي يتم عرض قضايا السياسيين عليها، بلا طائل ولا فائدة!!

سكّان عنبر رَقَم واحد بدأوا يدركون بسبب طول المكوث دون إحالة إلى النيابة، ودون تحقيقات داخل مكان احتجازهم، حيث اقتصرت التحقيقات على الطلاب الثلاثة بالجامعة، أنّهم في حُكم المختفين قسريًّا، وأخذوا يقدِّرون حجم المعاناة التي يتكبَّدها ذووهم في الخارج، وأصبح هذا هو السبب الحقيقي لشعورهم بالأسى والألم.

حمدي الترزي الوحيد الذي أصبح استثناءً من القاعدة العامّة، لقد استطاع والده أن يمرّر له عبر أمين تربطه به صلة وثيقة مبلغًا من المال! لم يكن حمدي الترزي سعيدًا بالحصول على المبلغ المالي الذي سيساعده على زيادة رصيد علب السجائر لديه، بقدر سعادته بأنّ والده الشيخ الطاعن في السنّ قد استطاع كسر هذا الحصار الذي لم يستطع كسره أصحاب الرُتب الأمنية وذوو النفوذ والسلطة!!

*****

59

لم يكن هذا هو الحلم أو الكابوس كاملا الذي يراه القَنِّي كل ليلة وهو نائم على الأرضية الخرسانية المهترئة، متوَسّدًا قارورة بلاستيكية من التي تباع فيها المياه الغازية، وقد ملأها بالماء، في زنزانة عرضها ستة أمتار في طول خمسة أمتار ونصف، يشاركه فيها ثمانية وعشرون مختفيًا قسريًّا آخر.

ما الذي جاء به إلى هنا؟ من الذي زجَّ به إلى أعماق قضية سياسية خطيرة لا يعرف أحد رفاقه أبعادها؟

كل يوم إضافي يمرّ على القَنِّي، يتبيّن أكثر عمق المصيبة التي تحيط به إحاطة السوار بالمعصم. يضيق الخناق أكثر فأكثر كلما اقترب مخزون الحشيش الذي استطاع تهريبه معه في جوربه دون كثير عناء، فالجنود الذين فتَّشوه يبحثون عن الأحراز السياسية وليس عن لفافة حشيش أو شريط من الحبوب المخدِّرة، اضطرّ إلى اقتسامه مع خمسة آخرين من رفاق الزنزانة!!

يضيق حتى تضيق عليه نفسه التي بين جنبيه عندما يتأخّر الكانتين عن إحضار السجائر، ملاذه الأخير في مخفاه.

في المخفَى ثمّة رفاق لهم عِلاقة ما بالشأن العام، هؤلاء لم يكونوا يتمنّون الإفراج، وإنّما يتمنّون من كل قلوبهم أن يتمّ عرضهم على النيابة العامة. على أمل أن تأمر بحبسهم على ذمّة قضيّة تظاهر ما، خمسة عشر يومًا لاستكمال التحرّيات!

يتساءل القَنِّي في فضول دَهِش:

- ما الفرق بين السجن الذي نحن فيه، وبين حبسنا عن طريق النيابة احتياطيًّا على ذمّة التحقيق؟!
تأتيه إجابة صادمة، بل مريعة.
أخيرًا يستوعب أنّ الاختفاء القسريّ هو أشدّ وطأة ونكالا من كل أنواع الحبس. فإن كان كل سجين يتحوَّل إلى رَقَم متجرّدًا من آدميته التي كان عليها قبل الحبس!
فإنّ شرف هذا الترقيم لا يناله المختفي قسريًّا. لأنّه وببساطة شديدة غير مقيَّد في السجلات، وليس له رَقَم!!
المختفي قسريًّا يتحوَّل لحظة اختفائه إلى وهم، إلى ذكرى بالنسبة لمعارفه، يصاحبها علامة استفهام كبيرة لا نهائية بلا إجابة!
صباحًا يحضر حضرة الأمين رفقته عدد من الجنود، يصيح مناديًا على خمسة عشر اسمًا من بينهم القَنِّي. حضرة الأمين المتجهّم دائمًا لا يجيب عن أي سؤال. وقد يضطرّ إثر تودّد وملاطفة، أن يجيب بعبارة لا يعرف غيرها:
- خير إن شاء الله.
تتراوح التكهّنات بين أنّ الخمسة عشر مخفيًّا سيُعرضون على النيابة العامة، أو سيُفرج عنهم، وكلاهما خير.
يخرج القَنِّي من الزنزانة في صفّ الخمسة عشر، معصوب العينين كما أُتي به منذ عدّة أيّام.
يغمغم مرتعبًا:
- ليس هذا منظر إفراج.
رغم خفوت صوته، يسمعه الذي يليه ويهمس:
- سترك يا رب.
يسمعهما أحد الجنود، يصيح بصوت جهوريّ مخيف:
- امنع النفَس.
يتحرَّك الصفّ معصوب الأعين حتى يُشحن في سيارة نقل المساجين. تتحرَّك بهم السيارة، ولقلوبهم هدير أعلى من هدير محرّكها العتيق. بعد مسيرة نحو ساعتين من الزمن، تلفظهم السيارة فيما يخمّنون أنّه عراء

ما. حيث لا صوت ولا ضجيج. يطلب منهم أحد الحرّاس بصوت آمر ينبعث من أعماق جحيم:

- اركعوا على رُكبكم جميعًا.

لم يتلكّأ أحد في تنفيذ الأمر على ما يظنّ القَنِّي، ثمّ. يسمع طلقات رشاش آلي. ويدرك القَنِّي في جزء من ثانية تبقَّى له قبل أن تصيب قلبه رصاصة قاتلة، أنّه والأربعة عشر رفيقًا كانوا بصدد القيام بعملية إرهابية، أحبطتها قوات الأمن قبل أن تقوم بتصفيتهم إثر تبادلٍ لإطلاق النار، أدَّى إلى إصابة جندي بجروح، ومقتل أفراد الخلية الإرهابية جميعًا!!

*****

60

في عُرس صديق قديم يلتقيها. ليست بالضرورة فائقة الجمال. لكنّها وحدها من استطاعت أن تُنفِذ نظراتها إلى أغوار نفسه. يسمع وجيب قلبه بشدّة. منذ متى لم يسمع صوت دقّات قلبه؟ سعيد بعودة قلبه إلى الحياة. إنّها المعجزة!! إنّه البعث!! وخائف من تكرار قصّة حبّ. النظرات البريئة الخجلى تتغلَّب على الخوف رويدًا، رويدًا. بعد أيّام تمّ التعارف، وبعدها تمَّت الخِطبة السعيدة بلا تعقيدات، هتف أشرف لنفسه:

- الدنيا ما زال بها خير!!

جرَّب أشرف الحبّ بلذّته ولوعته وناره التي حرقته فلم تُبقِ منه إلا رمادًا، وجرَّب الزواج بسكينته واطمئنانه ومودّته ومسؤولياته، وشعوره بأنّه لم يعد حرًّا في حياته يحياها كيفما اتّفق، فمعه في هذه الحياة شريكة مصيرها مرتبط بمصيره! وتساءل طويلا: كيف يحدث الحبّ؟ وهل قلبه قادر فعلا على الاشتعال بالحبّ من جديد لأمينة شريكة حياته، بعدما استراح لها واستكان؟! تجربة الحبّ الأوّل كانت مريرة حتى أنّه رغم الزواج ظل يخشى من الفقد بعد اللقاء!! وظل يُساءل نفسه عن شعور أمينة نحوه، هل هو استكانة أم مودّة أو لعله حبّ؟! أمينة لم تجرّب الحبّ في حياتها، وإن عرفته في أفلام السينما ومسلسلات التلفاز، والروايات الرومانسية، وادّخرته كله لزوج المستقبل، لم يكن لهذا الزوج صورة متجسّدة في خيالها. تُغمض عينيها فتراه: كيان هلامي الشكل، لا تعرف

إن كان طويلا أم قصيرًا؟ وهل هو أشقر أم أسمر البشرة مفتول العضلات؟ لكنّها تحلم به حانيًا رفيقًا رقيقًا، يحافظ على مشاعرها، ويقدِّم لها شيئًا يُسعد قلبها الذي يسعده أقلّ القليل إن صاحبته ابتسامة ودودة حانية!!

يتوقّف أشرف أمام معضلة أرَّقته: هل يسعده أنّ أمينة لم تعرف الحبّ قبله، وأنّه أوّل رجل في حياتها؟ أم يحزن لأنّها لم تحبّه هو بصفته وشخصه، وإنّما كانت دائمًا مستعدَّة لتمنح الحبّ للزوج، أيًّا كان هذا الزوج؟! لقد صادف أن كان هو هذا الرجل دون إرادة منها أو اختيار!!

سألها مرّة في محاولة منه لفهم سرّ ارتباك مشاعره وتقلّبها:

- قولي لي يا أمينة، ما الشعور الذي انتابكِ عندما شاهدتني لأوّل مرّة؟

سرحت أمينة ببصرها في محاولة للتذكُّر، تساءلت على سبيل كسب لحظة أو لحظتين:

- تقصد في عرس ابنة خالتي؟

- وهل التقينا قبل هذه المناسبة، وأنا لا أعرف؟!

غلبها الحياء، احمرّ وجهها ونظرت إلى الأرض، وتساءلت عابثة:

- صف لي أنت أوّلا شعورك يا حبيبي عند هذه اللحظة. وسأصف لك.

أجابها بما يشبه الحسم:

- أريد أن أعرف شعوركِ أوّلا، وسأجيبكِ عن سؤالكِ صادقًا، فلا تخشي شيئًا.

لم ترفع عينيها إليه، وأجابت في رقّة وتردّد:

- شعرتُ بشعور لذيذ وعجيب. سرتْ في جسمي كله قشعريرة غريبة لم تحدث لي في حياتي من قبل!!

- حبّ من أول نظرة؟!!

- لا أستطيع أن أصف هذا الشعور بالحبّ. كان شعورًا أكثر من الإعجاب، وأقلّ من الحبّ!! ثمّة نغزة شعرت بها في قلبي. شيء ما في نفسي حدَّثني أنّه سيحدث بيننا شيء!!

ظل صامتًا شاردًا فيما تقول. أخرجته من تأمّلاته وهي تسأله بدلال:

- وأنت يا حبيبي ألن تصف لي شعورك في هذه اللحظة كما وعدتني؟

قال وهو يواري ارتباكه:

- شعرت بنظرات عينيكِ تخترق شغاف قلبي. وقلت هذه زوجتي. اقتربت منه كقطّة ممتنّة لصاحبها. مسَّت كتفه بكتفها. تشجّعت أكثر، فطبعت قبلة سعيدة على خدّه. جذبها إلى صدره، أراد أن يسعد حقيقة بكونه أوّل حبّ، وأوّل رجل في حياة زوجته الأمينة.

*****

61

يرى شعبان أنّ كثيرًا من أنصار الرئيس كانوا سببًا مباشرًا في تفاقم الغضب لدى جموع شعبية كبيرة، فلو اقتصر الأمر على عدم إنجاز الرئيس لعديد من الملفات المأمولة، لربما هان الأمر. ولكنّ شيئًا من غرور الأنصار وعدم إدراكهم للواقع السياسي والاجتماعي المحيط، راكم الغضب حدّ الانفجار!!

لكل ذلك خرج مهندس شعبان في الاحتجاجات، وسقط أوّل رئيس مدني مُنتخب. ومضت الأيّام بحلوها ومرّها، شعبان سعيد بأسرته الصغيرة، زوجته (فرح) هديّة القدر له كما كان يذكر لها دائمًا، وابنته (ملَك) التي جاءت إلى الدنيا كملاك صغير يحتضن العالم في قلبه. ويأسر قلبي شعبان وفرح بابتسامة تشرق في عينيه. وهو كذلك يتقدَّم في عمله ويترقَّى في وظيفته. ومع ذلك ظل يشعر أنّ طموحه مبتور. يعيش يومه في رغد متعثّر أو متلكّئ، لكنّه لا يأمن مستقبله، ولم يتحقّق حلمه الذي يحلم به لوطنه!

يسمع شعبان بأنباء عن احتجاجات جديدة ربما تتحرّك مطالبة بالتغيير. تأخذه روح أقرب إلى التحفّز الحَذِر أكثر منها إلى الحماسة. يتساءل في جزع:

- ماذا دهاك يا شعبان؟ هل صرت فتى مراهقًا كلما دعى داعٍ لاحتجاج تحفَّزت له ووثبت فيه؟ قليل من الرزانة والثبات يا رجل!

ومع اقتراب مساء الجمعة أخذ صوت تحذيرات العقل يتبخّر رويدًا رويدًا من رأسه ويحلّ محلّه رغبة متأنّية في صنع التغيير. ولمَ لا؟ فليقترب من الميدان الكبير، فإن رأى احتجاجًا احتجّ، وإن لم يرَ ما يريب عاد إلى حضن زوجته مرتاح البال. لم يمهله القدر حتى لاستطلاع الموقف، وجد نفسه مشحونًا في سيارة زرقاء معتمة مع آخرين إلى مجهول ما!!
الهول يا لقسوته
محافلٌ تضمّ ألف سوط!

*****

62

في كل أزمة جديدة تنشب بين الزوجين، يقف الأسطى حماده الشحات في صف كِنّته وابنة أخيه، ويرى الخطأ عند ابنه إسلام، حتى لو كان مقتنعًا بموقف إسلام وحسن تصرفه، فإنه يطلب منه الصبر وحسن المعاشرة، ويطلق إحدى نصائحه الأثيرة:

- كبِّر عقلك يا ولدي. سياسة النساء تحتاج إلى تفويت!
- هناك أفكار وأفعال يا حاج لا يمكن السكوت عنها ولا التفويت لها.
- أنتما ما زلتما صغيرين. ستفوّت يا ولدي. ستفوّت لتستمرّ الحياة، وتستقرّ الأسرة.

بينما ينصح زهرة قائلا:

- أنتِ تعلمين يا زهرة يا حبيبتي أنّكِ أعزّ عندي من كل بناتي.
- أكيد يا عمي. حضرتك السبب الوحيد الذي يجعلني أصبر على معاملة إسلام لي.
- لا يا ابنتي. أنا لا أريد أن أكون سببًا في صبركِ مع زوجك. أريد أن يكون حبّك له هو السبب الحقيقي لاستمرار الحياة بينكما.
- لكن يا عمي.
- اسمعي نصيحتي يا زهرة يا ابنتي. المرأة العاقلة هي التي تعامل زوجها مثل الطفل الصغير، فتلبّي رغباته من باب الحبّ لا من باب

الخنوع، وتتجاوز عن هفواته كما تتجاوز الأُم عن هفوات وليدها. وتداري على نزواته لتظهره أمام الدنيا أنّه أفضل رجل في العالم.
ثمّ يفتح ذراعيه ويجذب زهرة إلى صدره، ويقبّل رأسها قبلة حانية ويمسح لها دموعها ويسأل:
- صافي يا لبن؟
لتجيبه وابتسامة شفتيها تعانق الدموع المتجمّعة على خديها:
- حليب يا قشطة.

*****

63

أصبح الشرقاوي مسؤول العنبر رَقَم واحد. سنّه نحو خمسة وخمسين عامًا أو أقلّ قليلا، فارع الطول بدين الجسم، خمري لون البشرة، رمادي الشعر، يعمل سمسارًا في سوق تجارة السيارات المستعملة، حالته الصحية لا تسمح له أن يقضي المدّة التي قضاها محتجزًا في مكان لا يوجد به مقعد مريح للجلوس، على إثر جراحة أجراها قبل ثلاثة أعوام في مفصل ركبته اليمنى.. لكن ما باليد حيلة.. بالجملة فإنّ عم الشرقاوي رجل دمث الخلق حلو المعشر، هادئ الطباع، حكيم في غير صخب أو ثرثرة، يعتمد في إدارته العرفية أو الشرفية لساكني العنبر على نوع من الرجاء المهذّب، عادة يطلق جملته الأثيرة:
- أرجوكم يا شباب لا تسببوا لنا حرجا مع الحرّاس والضبّاط. لقد أعطونا فرصة من قبل. وأنتم تعرّضتم لعقاب مخفّف. الله أعلم صورة العقاب في المرّة المقبلة كيف سيكون!
تنخفض الأصوات لدقائق معدودة ثمّ يعود الصخب. فهذا هو الواقع المَعِيش.
عم الشرقاوي كان يمتلك سرًّا لم يبح به إلى أيّ أحد. هذا السرّ يتعلّق بشقيقه، والحقيقة أنّ هذا السرّ لو توقّفت أمامه تحرّيات أجهزة الأمن، فهو جدير بتحويل ملف القضية بالكامل، وربما بكل عدد المحتجزين إلى قضية حقيقية خطيرة. فهذا السرّ يوفِّر له على أقلّ تقدير دافعًا قويًّا للتظاهر، وربما ما هو أكثر من التظاهر. لعل الشرقاوي كان على يقين من أنّ أجهزة الأمن تعرف هذا السرّ علم اليقين، لكنّه يجتهد ألا يكون

هو سبب إفشائه، فهو لا يأمن مغبّة انتشاره. يكتم الرجل سرّه الدفين في صدره ويدعو الله بإخلاص أن يخرج من هذه الورطة سالمًا، فالله وحده يعلم أنّه لم يرتكب جريمة يُعاقب عليها.

سرّ آخر رومانسي كان يحتفظ به عم الشرقاوي، في أماسي الصفا يطرح الأستاذ حسن، وكان بروفيسور في علم التنمية البشرية، وهو أحد أفراد مجموعة الستّة المتجانسين، أن يروي كل محتجز تجربة عاطفية، أو مؤثّرة تعرّض لها شخصيًا، كنوع من إثراء الباقين بالتجارب والخبرات الحياتية، يروي عم الشرقاوي عن زوجته:

- عشت مع زوجتي نحو خمسة عشر عامًا، ولم يرزقنا الله بالإنجاب. جرّبنا كل أنواع الأدوية والعقاقير والوصفات، الطبية منها والشعبية، دون جدوى. وأنا رجل أشتاق بكل كياني إلى أن أصبح أبًا، وأمي تضغط عليّ ضغط قِدر الضغط الكاتم، حتى كدت أنضج نضجًا كاملا. ولكنّي في الواقع أحبّ زوجتي حبًّا كبيرًا، وهي امرأة فاضلة راضية بقضاء الله، لم أرَ منها إلا كل خير، فظللت متمسِّكًا بها حتى آخر رمق. ثمّ قرّرنا في نهاية الرحلة عرض الأمر على واحد من أكبر الأخصائيين في القاهرة، حيث أكّد لنا أنّ حالة زوجتي ميؤوس منها، وهي لا يمكن أن تحمل جنينًا، وعدنا من القاهرة ونحن في غاية الغمّ والهمّ والحزن، حرفيًّا أظلمت الدنيا بوجهينا، وصغر العالم، حتى صار لا يساوي في نظرنا مثقال ذرَّة، وشعرنا أنّنا نمضي بحياتنا كلها في نفق مسدود، وأنّنا سنصطدم بجسم الجبل الهائل في نهاية المطاف، نهاية المطاف نفسها لم تبدُ أبعد من أنفينا!! ثمّ سلَّمنا أمرنا لله، استيقظتُ ذا صباح على زغرودة طازجة طريّة غضّة مجلجلة تطلقها زوجتي الصابرة، إنّها حامل، ثمّ أنجبت لنا أبناءنا الثلاثة!!

كبَّر سكان العنبر رَقَم واحد تعاطفًا مع قصّة عم الشرقاوي.

إيهاب كان ينزوي، وعندما تجاوز العبءُ النفسي عليه قدرتَه على الاحتمال، أسرّ إلى بعض الرفاق، أنّ خال والدته يشغل منصب الشخصية الثانية بعد أكبر شخصية في المنظومة الأمنية بالمحافظة على الإطلاق، ولذا انتظر إطلاق سراحه بعد عدّة ساعات، أو بعد يومين، أو

ثلاثة أيّام على أقصى تقدير، أمّا أن يتخطّى الأمر أسبوعًا فهذا فوق الطاقة، فوق القدرة على العقل والمنطق والمعقول!!

*****

64

صرخ القَنِّي في رعب:

- أنا لم أفعل شيئًا. لست معهم. أريد أن أخرج من هنا.

يحتضنه إسلام أقرب الراقدين إلى جواره. يحاول تهدئته. يسرع (إيهاب من أوّل أمس إن شاء الله)، بإحضار قارورة ماء مملوءة حديثًا من الصنبور، يقدِّمها له وهو يهتف:

- ماء فاخر من الآخر.

تتعدَّد الأصوات:

- تعوَّذ بالله من الشيطان. كابوس يا قَنِّي. كابوس. لا تَبُح به لأحد.

ترتفع حوقلات واستعاذات. ينادون على الشاب ضياء جابر ليرتّل على مسامع القَنِّي آية الكرسي بصوته العذب المشحون شجنًا.

يتبين القَنِّي أنّه ما زال حيًّا يُرزق في مخفاه، يحمد الله بصوت متهدِّج:

- سهام لم تنتحر. أنا لم أمسّها. لم يطلقوا علينا النار.

*****

65

اعتاد أشرف أن يكون على القمّة في مهنته، ولم يعد يطيق أن يتراجع عن التميّز في عمله. عندما عاد من رحلة هروبه، قرّر افتتاح مركز متميّز ومتكامل لصيانة السيارات. الفكرة جيّدة لم تستوعبها مدينته الإقليمية، ففي المدينة مركزان متكاملان مملوكان لملياردير ات الزمن الجديد. إمكانات أشرف المادية أقلّ كثيرًا من إمكاناته الفنية، وعاجزة تمامًا عن منافسة العمالقة. لم يجد سوى امتهان مهنة غريبة عليه حدّ التناقض مع شخصيته، يمتهنها للإيفاء بمتطلّبات الحياة لزوجته وأطفاله!!

تمرّ الأيّام بحلوها ومرّها ولم يكن يعلم أنّ المخبز الإيطالي الذي اعتاد أن يحصل منه على الخبز الفينو لشطائر أطفاله، سيتسبّب له ليلة ما في كارثة لا يعلم مداها إلا علام الغيوب! حدث ذلك في مساء يوم جمعة وهو يوم راحته الأسبوعية من العمل. حدَّثته نفسه أن يشتري الخبز من أيّ مخبز قريب من مسكنه. خاصّة أن ذلك المخبز يقع بعيدًا عن بيته مسيرة نحو نصف ساعة بالقرب من الميدان الكبير في المدينة، تذكَّر آخر مرّة أحضر فيها الخبز من مخبز آخر، محمد ابنه الصغير رفض الطعام، لم تعجبه نوعية الخُبز!!

رغم أنّه كان يشعر بالكسل في يوم عطلته، لكنّه تحامل على نفسه ومشى مسيرته اليومية إلى الميدان الكبير في وَسَط المدينة، ليحصل على الخبز الطازج الجيّد ذي الرائحة القويّة، ويعود عن طريق الميدان الكبير، يرى تجمَّعات فوق العادة على جوانب الميدان، لم تدهشه، فهو يعلم أنّ الليلة كانت مباراة القمة في كرة القدم بين الأهلي والزمالك، ومن المعتاد أن يخرج الشباب إلى الميادين ليعبّر جمهور الفريق الفائز عن فرحته بفوز فريقه. لا سيّما إن كانت المباراة تقام على كأس بطولة ما. لكنّ أشرف ما كاد ليتقدّم بضع خطوات من الميدان، يحمل معه كيسًا مملوءً بالخبز الطازج الساخن، إلا وفوجئ بعدد من رجال الأمن بزيّ مدني يلقون القبض عليه. ترتسم دهشة حقيقية على وجهه الذي لم ترتسم عليه ملامح الذعر بعد!! لا بدّ أنّ هناك خطأ ما، لا شكّ في ذلك. لكنّهم اصطحبوه في عنف وألقوا به في عربة شرطة كانت معدّة لاستقبال العابرين!! عبثًا حاول أن يصرخ، أن يشرح، أن يصيح، أن يبحث عن مسؤول يسمع صوته، ملوّحًا بكيس الخبز الذي تملأ رائحته الشهيّة أجواء السيارة الكئيبة. لحظة وقد لاحظ امتلاء كابينة السيارة الخلفيّة بالعدد المطلوب، سيتبيّن لاحقًا أنّهم ستة من الشباب في أعمار متفاوتة، صعد رجلان من رجال الأمن سدًّا خلفيّة الكابينة المفتوحة مانعيْن للضوء والهواء، وتحرَّكت السيارة بسرعة إلى مكان سيتبيّن أنّه معسكر فرق الأمن المركزي!!

لم يكن ثمّة سوط. لكنّ انتظاره كان في قسوة لسعة ألف سوط!
لم يكن ثمّة سوط، لكنّ الإهانة وامتهان الآدمية وتحقير الشأن كان حاضرًا ينوب عن السوط ويعمل عمل ألف ألف سوط. لم يكن ثمّة سوط، لكنّ الأمر بخلع القمصان الفوقيّة وتسليمها ليد الجنود ليقوموا بعصب رأسك وعينيك بها كان له طعم ألف سوط، ويهيّئك لتلقّي ألف سوط فوق كتفك العاري! ليس ثمّة سوط واحد، لكنّ الإهمال والتجاهل ولا المبالاة بوجودك، حيث تشعر إنّك والمقعد الحجري الحائل من القِدَم سواء. على سبيل الغرور واستشعار الأهمّية الزائفة. وإلا فالمقعد الحجري الحائل من القِدَم له أهمّية وفائدة عنك! كان له في النفس عمل ألف سوط! ليس ثمّة سوط، وفي فراغ الفراغ أو لا الشيئية المطلقة يعلو صياح كأنّه آتٍ من أصقاع بعيدة:

- اصحى صحصح حدِّيك تمام.

يرد عليه صياح أعلى منه وأكثر بعدًا:

- تمام التمام التمام التماااااااااام.

وعُراة الأكتاف أو الصدور يتحسّسون مكان وجودهم. ويتحسّسون الرفقة طلبًا لطمأنة ما للنفس على درجة سوداوية الأيّام المقبلة. يظلّ المخبرون والجنود والشاوشية يأمرون وينهون وتنحصر الأوامر وإن تعدَّدت الصيغ في وجوب حبك العُصابات حول العيون، وعدم اختلاس النظر من أسفلها وإلا حدث ما لا يُحمد عقباه! يستجدي كهل على مشارف شيخوخة كان قد سُحل في أرضية الميدان، القريبين من المخبرين ليخفّفوا ربط العُصابة عن أم رأسه، فهو مصاب بارتفاع في ضغط الدم، مع وعد مُبكي ومتملّق بألا يحاول استراق النظر نحو العدم الذي وجد نفسه فيه! الهول يا لقسوته.

محافل تضمّ ألف سوط.

ليس ثمّة سوط. لكنّ خيالات الهول صنعت لكل نفس ألف سوط، جعلت الكل يخاف من الكل، ويتوجَّس ويتحسّس ويتحسَّب. ثمّ يرتعب من فتح باب زنزانة سيُحشرون إليها حشرًا. لكنّ الفرج أيضًا سيكون حاضرًا وسينزل على النفوس التي تنفّست الصُعداء كدعوة للتمتّع بالنعيم؛ مع

الأمر المتسامح الذي ألقاه أمين بشوش برفع العُصابات من فوق العيون ليُرَى المختفون مصايرهم المحتومة.

*****

67

سيظل إسلام الشحات مؤمنًا أنّ حياته الزوجية مع زهرة هي السبب في تدهور حالته الصحية، واضطراره لإجراء جراحة القلب المفتوح في هذه السنّ المبكّر، فهو لم يتجاوز الثلاثين إلا بسنوات معدودة! حتى عندما تمّ إلقاء القبض عليه في تلك الليلة الحالكة، كان قد قرّر ترك البيت والخروج للسير بعيدًا عنه، حتى لا يلتقي أشقّاءها الذين أتوا من سفر للصلح بين الزوجين، لم يكن يريد الصلح، ولم يكن يريد هذه المقابلة. كان يريد أن يأخذ وقته بعيدًا عن كل أنواع الضغوط. أخذه المسير إلى الميدان الكبير، وهناك على رخام فسقيّة الميدان حيث يتجمَّع عدد من الأُسر، ونسوة المدينة في الهواء الطلق لتناول العصائر والمثلّجات دون الاضطرار لدفع فواتير الكافيهات. كان هذا الدرج الرخامي الذي يحيط بالفسقيّة التي تتوسَّط الميدان الكبير، هو (كازينو الغلابة)، يجلسون عليه دون أن يطالبهم أحد بدفع مقابل خدمة، أو ضريبة مبيعات. فقط تُحضِر كل أسرة أو مجموعة ما تشاء من اللبّ والفول السوداني أو الترمس، والذُرة المشوية، ومختلف حبوب التسلية الرخيصة. يتقدَّم إسلام في سيره على غير هدى لتمضية الوقت، مدّعيًا أنّه ينفّذ تعليمات الطبيب الذي أمره بالسير نحو ساعة من الزمن في الجوّ المعتدل كل يوم لمساعدة القلب على تجاوز توابع الجراحة، وهو في الحقيقة يهرب من نفسه، يلحظ قلقًا وتوتّرًا في وَسَط الميدان الكبير، ثمّ يسمع صراخًا وصياحًا منبعثًا من بعض النسوة المفترشات الدرج الرخامي للفسقيّة، فيحثّ الخُطى نحو مصدر الاستغاثات، ليجد بعض الجنود يجذبون النساء من أذرعهنّ وأكتافهنّ لينهضن عن الدرج وينصرفن من المكان المعتاد لتجمّعهن. لم تعطِ شهامة إسلام لعقله فرصة لاستيعاب الموقف المحيط به، وبمجرّد أن لمح ضابطًا يحمل على كتفيه دلائل رتبة قيادية كبيرة، ألقى نفسه أمامه وهو يصيح:

- أرجو من حضرتك إيقاف هذه المهزلة يا فندم. العساكر يعتدون على السيدات بطريقة مهينة لا تُرضي...
لم يكمل إسلام جملته. ورغم ضخامة جسمه طولا وعرضًا، وجد نفسه محمولا بين أربع رجال أشدّاء يلقون به داخل الكابينة الخلفيّة لسيارة شرطة زرقاء كالحة!!

*****

68

أيمن هذا الفتى العجيب الغريب، ابن أحد مراكز الريف، متوسّط الطول، مكتنز الجسم، يعاني مشكلة فرط الحركة بشكل مريب، لم يكن هو وحده يعاني فرط حركته، بل كل سكان العنبر رَقَم واحد كانوا يعانون بسبب فرط حركته (مهيبر)، ليست مبالغة أنّه يخلع ملابسه ويدخل للاستحمام كل ساعة تقريبًا، ويخرج من دورة المياه وجسده العاري إلا من سرواله القصير يقطر ماءً، يحاول تبريد جسده بأيّ طريقة ممكنة، لكنّه لا يهدأ ولا يتبرّد رغم ميل الجوّ بصفة عامّة لبرودة لطيفة. وهو يتناول كل ما يجده أمامه من أيّ نوع من أنواع العقاقير الدوائية، بالإضافة إلى أقراص متعدّدة من المسكّنات التي يشتري منها شريطًا كل يوم عن طريق جندي الكانتين. ومن الواضح أنّ التعليمات للحرّاس تقضي بعدم منع أيّ نوع من العقاقير الطبّية المسموح بها في الصيدليّات عن المحتجزين، يستغلّ أيمن هذه التعليمات أسوأ استغلال ممكن.
في اليوم التاسع من أيّام الإخفاء أو التوقيف، أفاق سكان العنبر رَقَم واحد على صوت صراخ وعويل، ثمّ حالة من الهستيريا الصاخبة تتلبّس أيمن، أخذ يدقّ الباب الحديدي للعنبر بلكماته، ثمّ بكفّيه، ثمّ بكامل ذراعيه، ثمّ أخذ يضرب الباب بذراعيه وقدميه، وهو يصرخ في جنون، عبثًا حاول الرفاق السيطرة عليه، حتى حضرات الأمناء لم يتعاطفوا مع حالة الهياج هذه التي استمرّت نحو ربع ساعة، ولم يحضر أحدهم ليستطلع الأمر. ثمّ سقط أيمن أرضًا بعدما خارت قواه، بدأ جسده يبرد، وحبّات العرق

أخذت تنضح على جبينه وعنقه، وشعر الرفاق بالخطر المحدق، فأخذوا يدقّون الباب الحديدي المصمت وهم يصرخون:

- أدركنا يا حضرة الأمين. أدركنا يا حضرة الأمين!
- عندنا حالة حرجة يا حضرة الأمين.

ولم يتأخّر الأمين كثيرًا، أتى يستطلع الأمر، وأمام الباب وجد أيمن ممدّدًا بلا حراك، وعدد من زملائه يعملون على إفاقته. أغلق الباب وهُرع إلى عدد من الجنود وجاءوا جميعًا وحملوا الفتى إلى خارج العنبر. بعد مُضيّ وقت بدا طويلا ثقيلا مشحونًا وحزينًا، ظل خلاله سكان عنبر رَقَم واحد على أعصابهم، أقبل حضرة الأمين يسأل:

- هل بينكم أحد يعرف ما الذي تناوله زميلكم من عقاقير؟

تقدّم القَنِّي من الباب، قال بجسارة:

- أنا أعرف.

ثمّ استأذن الأمين، وأخذ يبحث تحت بعض البطاطين عن عدد من شرائط الأقراص الدوائية، ثمّ خرج بها في حوزته مع الأمين. وعندما عاد القَنِّي أخبر الرفاق:

- يُجرون له عمليّة غسيل معوي. المجنون تناول عددًا من العقاقير المتعارضة كادت تصيبه بالتسمّم!

في اليوم العاشر على الإخفاء، وقبيل الظهر، أتى حضرة الأمين، نادى على أسماء نحو عشرين من المحتجزين، وعندما اصطفّوا أمامه، طلب من كل فرد منهم رَقَم هاتف أقرب أقاربه، تمّ استيفاء المعلومات، ولم يُفصح حضرة الأمين عن أيّ أسباب، لم يعلّق سوى بجملة واحدة:

- خير إن شاء الله.

وكان حضرة الأمين قد جاء في الصباح ونادى على عدد آخر من المحتجزين، هؤلاء اصطحبهم معه وخرجوا من العنبر، كان من بينهم مجموعة الستّة المتجانسة، وطلاب الجامعة الثلاثة، والمهندس شعبان!!

في غضون الساعة السادسة أو السابعة من مساء ذات اليوم، أُعيد النداء على الأسماء العشرين الباقية في العنبر، تمّ صفّهم في طابور، وأقبل المأمور وألقى كلمة سريعة، قال في نهايتها:

- **(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ).**

ثمّ مضوا صفًّا واحدًا خلف حضرة الأمين، قطعوا عرض معسكر الأمن كله، وعربات الأمن بأحجامها المختلفة تحيط بالمكان، تذكَّر القَنِّي الكابوس الذي أخذ يداهمه في الليالي الأخيرة، دقّ قلبه بعنف وضاق صدره حتى كادت تنطبق ضلوعه، أخيرًا أبصر البوّابة الخارجيّة للمعسكر، وعلى الرصيف المقابل للبوّابة رأى مجموعة من أهالي المحتجزين قدموا لاستقبالهم، ولمح أباه الحاج أبو محمد، جرى إلى أحضانه وهو يقهقه قهقهة عالية. ودوَّت زغاريد الأمهات والفتيات!

دمنهور 20-9-2021

رواية 236

تأليف: علاء سعد حميدة

تنسيق: ايمان ممدوح

تصميم غلاف: محمد طه مخلوف

رقم الإيداع: 2024/14721

الترقيم الدولي: 978-977-8752-0-11

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف وأي إقتباس أو تقليد أو إعادة نشر دون موافقة قانونية مكتوبة من الكاتب يعرض صاحبه للمسائلة القانونية

والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لاغير

ahmedragbmait@gmail com

012221235833

الطبعة الاولى يناير 2024